آخر ملامح الأرض - أحمد أبوالنجا

أحمد أبوالنجا

آخر ملامح الأرض

وقصص أخرى

أبوالنجا

آخر ملامح الأرض

اليوم هو اليوم الأخير للأرض، أرى الطوفان يأتي من بعيد، عما قريب سيختفي العالم الذي نعرفه وسأختفي أنا أيضًا، على أنْ أنهيَ مَهمَّتي أولًا، كيف بدأ الأمر؟ وكيف انتهى بي جالسًا أعلى سطح البناية التي أقطنُ فيها؟ أنظرُ إلى ساحل البحر وأرقب الطوفان يأتي من بعيد، واضعًا أمامي أدواتي، وأسمع الصرخاتِ تتردد في كل مكان، والناس يُهرَعون يُمنةً ويُسرة أسفل الشارع وعبر الشوارع المحيطة، السيارات تصطدم ببعضها البعض، وأصوات الصراخ يصمُّ الآذان، ولكني لا أكترث، يدي تعمل في سرعة وعقلي وروحي متجسدان مع يدي، محطات حياتي تتوالى أمام عيني.....إلخ

أحمد أبوالنجا قاص وروائى له العديد من الأعمال المخطوطة ثلاثة روايات ومجموعة قصصية ومسرحية ومقالات وله أيضا بعض الأعمال المطبوعة (رواية) والأعمال المنشورة فى دوريات (قصص قصيرة) حاصل على جائزة وزارة الثقافة فى القصة القصيرة لعام 2012 وجائزة أدب الخيال العلمى لعام 2010

NOOR PUBLISHING

978-3-330-84071-3

أحمد أبوالنجا

آخر ملامح الأرض

أحمد أبوالنجا

آخر ملامح الأرض

وقصص أخرى

Noor Publishing

Impressum
Bibliografische Information der Deutschen Nationalbibliothek: Die Deutsche Nationalbibliothek verzeichnet diese Publikation in der Deutschen Nationalbibliografie; detaillierte bibliografische Daten sind im Internet über http://dnb.d-nb.de abrufbar.
Alle in diesem Buch genannten Marken und Produktnamen unterliegen warenzeichen-, marken- oder patentrechtlichem Schutz bzw. sind Warenzeichen oder eingetragene Warenzeichen der jeweiligen Inhaber. Die Wiedergabe von Marken, Produktnamen, Gebrauchsnamen, Handelsnamen, Warenbezeichnungen u.s.w. in diesem Werk berechtigt auch ohne besondere Kennzeichnung nicht zu der Annahme, dass solche Namen im Sinne der Warenzeichen- und Markenschutzgesetzgebung als frei zu betrachten wären und daher von jedermann benutzt werden dürften.

البيانات القانونية
معلومات ببليوجرافية للمكتبة الوطنية الألمانية : المكتبة الوطنية الألمانية تسجل هذا المنشور في الببليوجرافيا الوطنية الألمانية تفاصيل البيانات الببليوغرافية موجودة على شبكة:.http://dnb.d-nb.de الإنترنت تحث الموقع التالي
جميع العلامات التجارية والمنتجات المستخدمة في هذا الكتاب تخضع لقانون براءة اختراع ،وهي علامات تجارية مسجلة لأصحابها. استنساخ الأسماء التجارية، أسماء المنتجات ،أسماء مشتركة في هذا المنشور، حتى من دون وضع العلامات الخاصة لا يعني أن هذه الأسماء هي معفاة من التشريعات التجارية لحماية العلامة ،وبالتالي يمكن استخدامها من طرف أي شخص.

Coverbild / صورة الغلاف
www.ingimage.com

Verlag / دار النشر
Noor Publishing
ist ein Imprint der / is a trademark of
OmniScriptum GmbH & Co. KG
Bahnhofstraße 28, 66111 Saarbrücken, Deutschland / Germany
Email / البريد الإلكتروني
info@omniscriptum.com

Herstellung: siehe letzte Seite /
طبع :انظر أخر صفحة
ISBN / رقم دولي معياري للكتاب:
978-3-330-84071-3

Copyright © أحمد أبوالنجا
Copyright / t © حقوق التآليف و النش
2016 OmniScriptum GmbH & Co. KG

Alle Rechte vorbehalten. /جميع الحقوق محفوظة .
Saarbrücken 2016

"آخر ملامح الأرض"

بقلم

أحمد أبوالنجا

الفهرس

1. هى لحظة 3
2. آخر ملامح الأرض 7
3. "ألبرت" ولغة الحرب 14
4. أيام 21
5. البحث عن القلادة 29
6. من أجل قلادتى 34
7. *دموع الزمن* *40*
8. الدكان 41
9. الظل 49
10. شفرة العقل الباطن 56

هي لحظة

السويعاتُ القليلة التي قضيتُها في محاولة عبور الشارع لم تكن ذات فائدة، الشخص نفسه مرَّ عليَّ خلال اليوم عدة مراتٍ، وقد أدرك في النهاية معاناتي حتى أنه عرض عليَّ المساعدة، بائع الشطائر أعطاني شطيرة كي أتغلب بها على جوعي، طبيعيٌّ أنْ أشعر بالجوع بعد أنْ مرت ساعاتٌ وأنا واقف عند الإشارة الضوئية، في البداية كان البائع متذمرًا من وجودي ومن وقفتي التي طالت، ولكنه لم يملك في النهاية إلَّا أنْ يتعاطف معي وقدم لي تلك الشطيرة المجانية، أم مع ابنتها ذات الأعوام التسعة وقفت بجانبي مطولًا تتحدث إليَّ بلُطف وتخبرني كيف نجحت في تعليم ابنتها أنْ تعبر الشارع بمفردها وهي في السابعة من عمرها، اعتقدت أنَّ حديثها معي سيغير الأمر، ولكن أذنيَّ قد توقفتا عن الإنصات، أو أنَّ عقلي لم يعُد لديه القدرة على تحليل الكلمات وفهمها وإدراكها، ابنتها الصغيرة تنظر إليَّ في عطف مرتدية غطاء رأس صوفيٍّ يمتزج باللون البنيِّ مع الأحمر، ويغطي رأسها حتى منتصف جبهتها كاشفًا عن خطيْن من الشعر الكثيف ينسدلان على جانبيْ وجهها، أمسكَتْ يدي في حبٍّ وابتسمَت فلم أتمالك نفسي من الابتسام، ولم أمنع ذلك الشعور المتدفق بالحنان والذي يندفع في قلبي فأنظر في وجهها البريء، ولسان حالي يقول: "كم أنتِ جميلة أيتها الصغيرة!"، استأذنَت الأم معتذرةً أنها ستتأخر عن موعدها، تركَت الفتاة يدي مرغمة بعد أنْ جذبتْها أمُّها بعيدًا، نظرَت إليَّ الصغيرة وهي تعبر الإشارة الخضراء فنظرتُ إليها أنا الآخر مادًّا يديَّ في الفراغ، كم تمنيتُ أنْ تدوم تلك اللحظاتُ طويلًا، سقطَت من عيني دمعة ولكني لحقتُ بها فاحتويتُها في باطن كفِّي، فاليوم قررتُ ألا أبكي مرة أخرى، مشجّعو كرة القدم للفريق الأحمر عائدون من المباراة، توقفوا عند الإشارة واحتووني بينهم يتمايلون يمنة ويسرة وهم يطلقون المزامير وينشدون الأغاني، ورغمًا عني تمايلتُ معهم فأياديهم على كتفي، ولم أملك إلَّا أنْ أغني بأعلى صوتي، لا حزنَ اليوم، غادروا بعد قليل وتركوني، الموظفون العائدون من أعمالهم بحقائبهم الجلدية وبزاتهم الأنيقة وشعورهم المرسَلة على أحد جانبي رؤوسهم وقفوا بجانبي مع ابتسامة مقتضبة ينظرون لساعاتهم، وباليد الأخرى يحركون الحقائب في توتر، ينظرون إلى الساعات من جديد وحركة الأيادي الأخرى تزداد، الثواني وأنا أقف بينهم كأنها ساعات، تمنيتُ لو أنارت الإشارة الضوئية نورَها الأحمر للسيارات حتى يعبروا وأرتاح من صمتهم القاتل، ولكن لا مللَ اليوم، الصبر هو مفتاح الفرج كما أخبرتني جدتي في كلِّ يوم وليلة عايشتها فيها، كم كانت حنونة وجميلة، خفيفة الظلِّ تتكلم دائمًا بصوت هادئ، حتى ولم يكن بجانبها أحد ثم تضحك على ما تقول! فتحت الإشارة ليعبر الصامتون، في زاوية الشارع وخلف ظهري يوجد المقهى الصغير الذي يقدّم القهوة والفطائر، عاملة المقهى تستعد للإغلاق بعد نصف ساعة، تجمع الطاولات الصغيرة والمقاعد التي لا تتسع لأشخاص في مثل حجمي وتضعها بالداخل، أحضرَت لي- وللمرة الثالثة خلال اليوم- ثالثَ كوب قهوة وثالث فطيرة، كان التعب يظهر عليها جرَّاء يوم عمل شاق ومُرهِق؛ فأضحت ابتسامتها باهتةً ولكنها حقيقية، "من الممكن أنْ أترك لك مقعدًا لتجلس عليه، أنت تقفعلى قدميك منذ الصباح الباكر!" كانت تحاول أنْ تقنعني من جديد بالعدول عن رأيي بأنْ أرتاح جالسًا، شكرتُها ولم أُبدِ سببًا لرفضي لهذا الأمر عندما سألتني عن ذلك، لا راحة اليوم، صدقيني الحياة كبد وعناء وسنرتاح قريبًا، اليوم لا يضام جهد ولا تعب!، دقاتُ الساعة الكبيرة في محلِّ الخردواتِ القديمة تعلن عن فرار ساعة أخرى، ولربما هي الساعة الأخيرة في ذلك النهار، انحسرَت الشمس تمامًا، كان الجوُّ لطيفًا والناس العابرون للإشارة يقلون دقيقة بعد الأخرى، صوت باب المقهى الجرار يدوِّي في أذني كصوت الرعد في يوم ممطر، تغادر الفتاة اللطيفة المتعبة بعد أنْ تلقي التحية بيد كدَّت بجهد، أشرتُ لها مودِّعًا، نظرَت خلفها مرة أخرى متمنية لي

التوفيق، كأني رأيتُها تنتحب قبل أنْ تختفي، هل تفعل ذلك رثاءً لحالي أم أنها تضحك منه؟!، لا وقت اليوم للظنون، يكفي أنَّ الظنون بي عاصفة منذ سنوات، أنا اليوم لست أسيرًا لأيّ شيء، فقط أحدق للجهة الأخرى من الطريق ولا أحيد بنظري فهناك موطني وملاذي، الرجل العجوز صاحب محل الخردوات أدار المذياع على أغنية قديمة وأتى بكرسيّه يجرُّه في بطء ووضعَه بجانبي وجلس ينظر للاشيء مبتسمًا تارة، ومقتضبًا تارة أخرى، أنظُر إلى خصلات شعره البيضاء تتهادى على جبينه ونظارته السميكة الضخمة التي تُظهِر تجاعيد وجهه المربَّع وكأني أرى في كلّ تجعيدة عامًا مرَّ على هذا الكهل، لم يتكلم، كان ينظر إلى الفراغ كأنه يستذكر أو يُحصي سنواتِ عمره أو يسكتشف ماذا تخبئ له الأيام القادمة، ويرقب نهاية رحلته وتباطؤ قاربه وهو يقترب من الشاطئ ليعلن نهاية الرحلة فيهبط منه، ثم يقف على شاطئ السراب وضباب شديد يغلف الأفق لا يستطيع أنْ يكشف من خلاله العجوز وجهته أو ما يوجد وراءه، يظلُّ ينظر وينظر وينظر حتى يتوقف الزمن. الشمس في كبد السماء تختفي حثيثًا والأشعة البرتقالية تتبعها والظلام قادم يدنو رويدًا رويدًا، السيارات تقلُّ وكذلك البشر، ضباب خفيف يأتي من بعيد يغلف الشوارع والظلمة قد اكتملَت، ضحكة مارقة في جنح الظلام دوَّت، فتاة برفقة شاب يأتيان من خلفي متشابكي الأيادي، الفتاة تُظهِر من جسدها أكثر مما تخفيه، يقفان بجانبي ينظران إليَّ في استغراب، فتختفي البسماتُ من وجهيهما فالإشارة خضراء والطريق خالٍ ولكني لا أعبُر، يعبُران في صمت، تنظر الفتاة وراءها، وتحدِّق في وجهي فتختفي كلُّ البهجة وتترك يدَ صاحبها، كأنَّ نظرة حزينة ارتسمَت على شفيتها قبل أنْ يبتلعها الضباب وبعد ثوانٍ تدوِّي الضحمة الماجنة من جديد. صاحبي العجوز يقوم ويسحب كرسيه إلى حانوته ويبدأ في إغلاق المكان في بطء لا تقدر على إسراع وتيرته سنواتِ عمره السبعين، صوت الباب الجرار يدوِّي من جديد في بطء قاتل كأني أركب قطار أسمع حفيف وصخب عجلاته علي قضبان قديمة، "سأغادر الآن، مع السلامة!"

تمنيتُ له السلامة والعافية، نظرتُ ورائي لظهره المحنيّ وخطواته الوئيدة وصوت عكازه وهو يهوي علي الرصيف كلَّ حين فيوقظ الليل، الضباب يزداد والوحدة تملُّ مع اختفاء الجماداتِ والبشر، أرقب الإشارة تحمر وتخضر بلا عابرين لها أضواء المحلات المغلقة انطفأت، فقط ضوء عمدان الشارع هي من يسيطر على الحلبة، لا خوف اليوم، انعقد حاجباي وأنا أتذكر الخوف، كم اشتقتُ إليه! لم يفارقني منذ سنوات واليوم يجلس مستسلمًا هناك علي مقاعد البدلاء ينتظر مصيره في مباراة لا فائزَ فيها ولا خاسر، المطر يهبط من الأعلى، والرعد يدوِّي فيؤنس وحشة الليل ويكسر الصمت، الأمطار تزداد، السيدة العجوز التي تجلس في شرفة بيتها ترسل ابنها البالغ من العمر أربعة عشر عامًا بمظلة واقية من المطر، يقف بجانبي يحملها قليلًا ولكنها لا تسعنا فيفرك يديه، يبدو عليه الشعور بالبرد، يستأذن في المغادرة وقد ابتلت ملابسه، رفعتُ المظلة تحيةً للسيدة العجوز فابتسمَت لي، صوت إغلاق شرفتها وانطفاء النور جعلاني أتنفس الصعداء كي أنزل المظلة، لم أشأ أنْ أفعل ذلك وهي تشاهدني حتى لا أنكر صنيعها، أنظر فوقي للسماء، وأرى حباتِ المطر واحدة وراء الأخرى كأنها تأتي من بعيد من مصدر الحياة الأعظم، أُغمِض عينيَّ، أشعر بها على وجهي فأضحك وأضحك وأضحك، اليوم أولد من جديد كهذا المطر الوليد حديث العهد بالدنيا، نور الفجر يأتي بعد وقت ليس بقصير، وبعد أنْ توقفَت الأمطار، الطيور تستيقظ لتوقظ الحياة وعربات متناثرة تمرُّ بين الفينة والأخرى، تشرق الشمس من جديد على يوم آخر، يعود البائعون وأصحاب الحوانيت، الفتاة تعود بابتسامة مشرقة وتفتح مقهاها، الطاولات والمقاعد تصطف كعادتها، صوت عكاز الرجل العجوز أسمعه من بين كلّ الأرجل التي تدقُّ على الرصيف،

الرجال ذوو البزاتِ الأنيقة يأتون ويصطفون الناحية الأخرى كي يعبروا تجاهي، نظراتهم كما هي وحركات أيديهم لا تزال متواترة، يعبُرون بأنصاف ابتساماتٍ مبتورة، الأم تأتي مع ابنتها الجميلة فيشرق وجهُ الصغيرة عندما تراني وتمرع ناحيتي وتحتضنني، الجميع حولي

"الآن!"

تقول الفتاة والقلق يرتسم عليها "انتظر قليلًا!"

تضع الأم يدها على صدرِها وتقول: "تمهَّل يا بنيَّ، الإشارة لا تزال حمراء، وللسيارات المارقة خضراء"

تشير لي السيدة العجوز في شرفتها بألَّا أفعل، والابن ذو الأربعة عشر ربيعًا يجري ناحيتي.

العجوز الصامت يتحدث أخيرًا، يكاد الناس لا يعرفون صوته واليوم عرَفوه من جديد.

اليوم أنا أيضًا سأعرف نفسي من جديد.

يقول العجوز وهو متكئ علي عصاه: "دعوه يعبر كما يريد، لقد قرر ولن يوقفه شيء!"

"ماذا به؟" يقول أحد الرجال من ذوي البزاتِ الأنيقة

ترد عليه فتاة المقهى الضاحكة بوجه خائف مرتعد: "إنه لا يستطيع عبورَ الشارع؛ يخاف من ذلك منذ الصغر، ولكنه اليوم قد قرر أنْ يعبُر"

"كأنه لا يسمعنا!" يقول أحدهم

بالفعل لا أسمعهم، لا أسمع إلَّا صوت روحي وسلامي الداخليّ وابتسامة تعلو وجهي لا أعرف مصدرها، وشهيقي العميق يعلو فوق أصوات البشر وصخب السيارات، كم من الليالي جلستُ وحيدًا في البيت أخاف الخروج وأخاف العبور! وكم من العبَراتِ سكبتُ! وكم من دقاتِ الهلع داخل قلبي سمعتُ! أعبر الآن الشارع لا أستمع لشهقاتهم ولا لصراخ الأم، ولا أرى دموع فتاة المقهى، ويد الطفلة

ذات الأعوام التسعة ممدودة، وأعبر ثم أعبر لا ألتفِت يمينًا ولا يسارًا ولا أخاف، نعم لا أشعر بخوف، ضحكتُ في صوت مجلل، ونظرتُ للسماء وأنا أعبُر، ودموعٌ تنهمر على وجهي كحباتِ المطر التي انهمرَتْ عليه ليلة أمس، حتى عبرت وقد أختفي كل شيء من حولي الشارع والمقهى والناس، أكملت سيري ولا تزال الابتسامة لا تفارقني واضعًا يديَّ في جيبيْ بنطالي، أتراقص على وقع الصفير الذي يصدره فمي، وأَمضي في طريقي بلا توقف وبلا ..... خوف!

انتهى

آخر ملامح الأرض

اليوم هو اليوم الأخير للأرض، أرى الطوفان يأتي من بعيد، عما قريب سيختفي العالم الذي نعرفه وسأختفي أنا أيضًا، على أنْ أنهيَ مَهمَّتي أولًا، كيف بدأ الأمر؟ وكيف انتهى بي جالسًا أعلى سطح البناية التي أقطنُ فيها؟ أنظرُ إلى ساحل البحر وأرقب الطوفان يأتي من بعيد، واضعًا أمامي أدواتي، وأسمع الصرخاتِ تتردد في كلّ مكان، والناس يُهرَعون يُمنةً ويُسرة أسفل الشارع وعبر الشوارع المحيطة، السيارات تصطدم ببعضها البعض، وأصوات الصراخ يصمُّ الآذان، ولكني لا أكترث، يدي تعمل في سرعة وعقلي وروحي متجسدان مع يدي، محطات حياتي تتوالى أمام عيني .....

تَخرُّجي في الجامعة... قصة الحب التي جمعتني بزوجتي، اليوم الأول الذي قابلتُها فيه، كم كانت جميلة وعطوفة وكريمة! عندما رأيتُها أولَ مرة استوقفني شيء آسِر فيها، لستُ أدري، أهي نظرتها الحانية أم خجلها الذي يظهر على وجهها فتدير عينيْها يمنة ويسري ثم تنظر أرضًا وتبتسم فتشرق الدنيا.. عيناها اللامعتان وشحوب وجهها عند الخوف.. الغيظ الذي يظهر على خلجاتها عند الغضب.. لمسة يدها الدافئة، كانت تجلس تقرأ في إحدى الحدائق، والحشائش والنباتات تتمايل مع طياتِ صفحاتِ الكتاب الذي بين يديها، كم حسدتُه ذلك اليوم! وكم تمنيتُ أنْ أكون كتابًا يُطوى بين يديها!، المرة الثانية رأيتُها عند خالتي وكأنَّ القدر يجمعنا معًا مرة أخرى، يصوغ قصة حبنا التي دامت خمسَ سنوات، خالتي لمحت في عينيَّ شيئا لم أدركه أنا بعد، أمي قد ماتت في صغري وكانت خالتي تتولى رعايتي منذ الصغر. المرة الثالثة كنتُ تحت مقرّ عملها، حدثتُها فتحدَّثت، وَكأنَّ شدو الطيور دخل إلى أذنيَّ وتغلغل إلى أعماق روحي، انتهى الحديثُ فلم أرحل وهي من حيائها لم تغادر، بل نظرَت إلى الأرض، إلى اليوم لا أعلم كم من الثواني لبثتُ صامتًا أنظر إليها، وقد أدركتُ حينها أنَّ شيئًا قد حدث، وأنَّ ذلك الشيء قد استقر في عقلي ووجداني، وأنها لي، وأنها حبيبتي، تقدمتُ لخِطبتها ثلاث مراتٍ، وَكلُّ مرةٍ أواجه بالرفض من قبل أبيها العنيد، حتى جاءت الثالثة فصِحتُ به، فأقسَم أنه لن يوافق ولو على جثته، كان جُلُّ اعتراضه أنَّ أبي وأمي متوفيان، وأنَّ عملي متواضع في أرشيف وزارة الثقافة أمَّا هي فتعمل مُحلِّلة في شركة مالية كبرى، حتى مات الأب وهي مخطوبة على الرغم عنها لشخص آخر يفوقني طولًا ووسامة ومالًا وأصلًا، يفوقني في كل شيء، ولكنه لا يفوقني حبًّا ولا حرصًا ولا اهتمامًا ولاهيامًا بها، إنْ كان سيغرقها في النعيم وفي المال فسأغرقها أنا في الحب والاهتمام، مات الأب فحلَّت الأمُّ مكانه تقوم بدوره نفسه حتى اعتراها المرض، فلم أتركها، كنتُ بجانبها طوال الوقت حتى رقَّ قلبها وباركت زواجنا بعد أنْ فسخت خطبتها منذ زمن، عشنا معها عاميْن حتى وافتها المنية، انتقلنا بعدها إلى تلك المدينة الساحلية، يتيميْن محرومين من حنو الأم ورحمة الأب ولكننا مشمولان بالحب، قضينا أيامًا سعيدة، نجلس معًا على الشاطئ ننظر إلى البحر البعيد تضع رأسها على كتفي وتنام، فأستنشق عبيرَها وقد اختلط برائحة البحر، في السنوات الأولى كانت تتوق لطفل صغير يؤنس حياتنا ولكنَّ الحمل لم يأتِ أبدًا، زرنا أطباء كثُر، أجمعوا على أنه لا يوجد عيب لدينا، وأنَّ علينا أنْ نلتمس الصبر الذي طالت أيامه وأصبحت سنوات، كان حالي وقتها قد انصلح، وامتلكتُ شركة صغيرة تدير بعض الأمور التجارية، زاد رزقنا ولم يكن لدينا أية احتياجات أخرى غير ذلك الطفل المنتظَر، ومع كلّ عام يمر علينا يقلُّ الأمل ويزداد تعلق كلٍّ منا بالآخر، أصبحت هي جنتي وناري، أرضي وسمائي، جمعَتْ بين يديْها كلَّ المتضادات....

رنَّ الهاتف؛ فانتشلني من أفكاري الضائعة، فإذا بها خالتي... نسيتُ أنْ أخبركم أنَّ خالتي بعد زواجي مباشرة انتقلت مع زوجها إلى أبنائهما المقيمين بإحدى الدول الأوروبية، وقد استقرت هناك ولم أرها منذ ذلك الحين طيلة أربعة عشرَ عامًا، كان بيننا مهاتفاتٌ تليفونية فقط، وعندما تسمع صوتي في الطرف الآخر من الأرض تذهب في نوبة بكاء، ثم تتلو عليَّ أهازيج الشوق فتدمع عيناي، كم كانت حنونة! أقول لها إنه وإنْ كان يفصل بيننا ذلك البحر الهائج، فأرواحنا متصلة، وإني لن أنسى ما حييتُ ما فعلتْه معي.

"آلو، أهلًا خالتي!"

بصوت مرتجف ومندفع كطلقاتِ المدافع: "أين أنت؟"

"فوق سطح بيتي."

"اهرب يا مجنون ....!"

"وأين أذهبُ يا خالتي؟ فالطوفان لن يبقي ولن يذر!"

تبكي بحرقة ويتقطع صوتها ويتهدج

"لا تقلقي يا حبيبتي، سأكون بخير"

كنتُ أكلمها بهدوء وطمأنينة، ولعلَّ ذلك بعث فيها بعضَ الهدوء

"وداعًا خالتي!"

بصوت مختنق بالدموع "لا تقل ذلك، انتظر قليلًا، ابقَ معي على الهاتف"

"لا أستطيع، لديَّ شيء أخير أريد إنهاءه"

"ألا زلتَ تفعل ذلك الأمر؟"

"نعم"

"وكيف هو؟"

نظرتُ أمامي قائلًا، والابتسامة تعلو وجهه، وكدتُ أقول شيئًا ما ولكن الاتصال قد انقطع، لعلَّ شبكة الاتصالاتِ الرئيسة تعطَّلتْ أو غرقَتْ.

نظرتُ للبحر الذي يبدو كالثور الهائج، الموجة الكبيرة تقترب، أشاهدها تدنو من السماء كأنها ستُغرِق الغيوم والسحب، وتذكرتُ الغيوم عندما هطل علينا المطرُ في ذلك اليوم ونحن على الشاطئ، كانت الغيوم تقترب وكانت تحذِّرني أنها ليلة ممطرة، وأنَّ علينا أنْ نترك الشاطئ ونعود أدراجنا للمنزل، أخبرتها أنَّ الغيمة تبدو بعيدة وأنها لن تمطر قبل منتصف الليل، وفجأة انفتحَت السماء بمطر شديد فعدونا معًا وقد ابتللنا تمامًا في خلال دقيقتيْن، وأثناء عدونا على الرمال المبتلة انزلقنا فسقطنا، ومن فورنا ضحكنا بصوت عالٍ والمطر يداعبنا، نظرتُ إليها وهي مستلقية، ونظرَتْ إليَّ وتوقفْنا عن الضحك، عيناها في هذا اليوم كانتا مختلفتيْن كأنها تتلو ترانيم الوداع، وضعت يدي على وجنتها وملَّسْت على شعرها المبتل وابتسمْتُ مِن فرط رقتها، ومن شيء ما يُضمَر في قلبي كحب جارف مشوب بقلق لا أعرف مصدره، استلقينا على الرمال تحت الأمطار وقد أخذتها في حضني فشعرت بدفء شديد، كنا وحيدين... نحن فقط، والطبيعة من حولنا .....

توقفتُ عن العمل واذا بي أرى عربة إسعاف تشتعل فيها النيران بعد أن انقلبت عدة مرات ولا تزال سرينتها تدوّي، قمتُ من مقعدي وأسندت يديَّ على الحاجز الأسمنتيّ ونظرتُ إلى بحر الطريق، الناس يهربون ولا أحد يحاول أنْ يُخرِج السائق المسكين أو حتى المريض الموجود في باطن العربة، انفجرَت السيارة في عنف وامتد الحريق للعرباتِ المجاورة، الوضع كارثيٌّ والأمور تتفاقم، عدتُ لمقعدي أرقب الموجة العاتية وهي لا تزال تدنو، شعرتُ أنَّ النهاية قد اقتربت وأني يجب أن أنهي عملي في أقرب وقت، وخاصةً أنَّ رائحة الموت بدأت تزكم الأنوف حتى قبل اقتراب الموجة من الساحل، الموت وياله من كلمة! هل سأتذكر الآن فاجعتي بعد أسبوع مرَّ على استلقائنا على الرمال تحت الأمطار؟، اقترحَت حبيبتي أن نسبح معًا في البحر البارد في تلك الليلة الشتوية من العام.

"أفكارك مجنونة!"

"فعلناها من قبل".. قالتها وهي تجري من حولي على الرمال ممسكة بيدي، تحاول إيقاعي وهي تضحك في دلال...

"نعم يا مجنونة، ولكن ليس في الشتاء."

قالت بتحدٍّ "لا، لقد فعلناها في الشتاء من قبل، نحن سباحان ماهران"

"هيا بنا!" جذبتُها من يدها وانطلقنا داخل الماء البارد في تلك الليلة المظلمة الخالية من قمرها، الماء قد وصل إلى منتصف صدري

"كفى، هيا بنا"

ضحكت قائلة: "ليس بعد!"

"الموج يعلو والماء بارد".. جذبتُها من يدها لنعود ولكنها أفلتت يدها وقالت: "ابحث عني إن استطعتَ!"

التفتُّ إليها، وقد بدأت تسبح في اتجاه البحر.

ناديت عليها "لا تفعلي!" ولكنها استمرت في الضحك ولم تستجِب، سبحْتُ خلفها وعندما اقترَبت انقلب حال البحر فجأة كعادته وكأنَّ الموج الذي اندفع والأمطار التي هطلت قد أخذا تصريحًا باختطافها، آخر نظرة منها كانت خائفة، مدَّت يدها لي وكأنَّ الموج الشديد أعياها وصرعها حتى أتت تلك الموجة.. أتت لتدفعني بعيدًا فأظل أبحث عنها، وقد توقف المطر ولا أسمع إلَّا صوت صراخي باسمها يتردد في الصمت المطبَق، كلَّ دقيقة تمرُّ أسمع صوت دقات قلبي تعلو بداخلي، يداي أُنهِكتا من السباحة ومن البحث عنها وصوتي قد بُحَّ من النداء ودموع حارة تندفع من عينيَّ، عدتُ للشاطئ كي أتبين إنْ كان الموج قد قذفها للخارج ولكني لا أجدها، أعود من جديد فأسبح وأسبح حتى أعياني التعب وفقدتُ الوعي لأجد نفسي فجرًا على الشاطئ، والصيادون بجانبي يحاولون إفاقتي، أقوم من مكاني وأصرخ باسمها، يبدو عليهم عدم التصديق بأني فقدتُ زوجتي ليلة أمس، حتى إنَّ أحدهم قال لصاحبه: "هل هو مجنون، كيف يسبح شتاءً؟!" ولكن من هلعي وصراخي ومحاولتي لدخول البحر مرة أخري شعروا أني صادق، خمسة مراكب نزلَتْ إلى البحر تبحث عنها معي وأنا في مقدمتهم، يمر يومان ولا أملَ! الشرطة في اليوم الثالث ترسل معي الإنقاذ البحريَّ ولا أمل! شهر كامل ابحث كل يوم عنها أو حتى عن جثتها ولا أمل! بين الصخور وعلى الشواطئ النائية، الشرطة اتهمتني بقتلها فأودعوني السجن أيامًا قليلة ولما لم يجدوا أيَّ دليل

على ذلك أفرجوا عني، بدا الناس لا يصدقونني ومنهم من اعتقد أني لم أكن متزوجًا من الأساس، حتى صاحبة البناية التي أقطنُ فيها قالت للشرطة إنها تظن أنها لم ترَ زوجتي منذ شهور عديدة، قسيمة الزواج الخالية من الصور قذفتُها في وجه الضابط في عنف فيرد "وكيف أتأكد أنها اختفَت في البحر كما تقول؟!"

يرى انهياري وبكائي فيتركني وأسمعه يخبر مساعديه بأني حتمًا مجنون، طلبوا مني إحضار صورة لها كي يوزعوها على المخافر، أحضرتُ صورتها من البيت، الأيام تمر بطيئة ولحيتي استطالت، بعتُ شركتي واشتريتُ زورقًا جُبتُ به البحر والشواطئ، كلُّ شواطئ الدلتا لم أتركها، ذهبتُ إلى المشارح والمستشفيات، لقَّبَني الناس بمجنون زوجته، مرَّ عام وقد بدأ الأمل يخبو رويدًا رويدًا حتى تلك الليلة، وقد رسا زورقي على أحد الشواطئ الطينية وقفتُ أمام البحر وبصقتُ عليه وانهرتُ في بكاء مرير "لماذا، فعلتَ، لماذا؟"

أدركتُ يومها أنها قد اختفَت من حياتي للأبد، مكثتُ على الشاطئ ثلاثة أيام أبكي في حرقة لا آكل ولا أشرب، كان القرويون من الصيادين يرأفون لحالي ويحاولون إطعامي، أسمعهم يقولون: "لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله."

حبيبتي دخلت حياتي بصعوبة بالغة، وخرجَت منها في لحظاتٍ معدودة، مرَّت أعوام خمسة بعدها، وقد أصبحتُ شريدًا لا مأوي لديَّ ولا عمل إلا البكاء والندم، في العام السابع على فقدانها أدركتُ شيئًا خطيرًا، صورتها بدأت تضمحل في خيالي وملامحها بدأت في الانزواء إلى ركن بعيد داخل أروقة عقلي المبتلى، أحسستُ بقشعريرة تسري في جسدي مشابهة للتي اعترتني يوم غرقها، عدتُ كالمجنون إلى منزلنا الذي لم يُعد كذلك كي أبحث عن صورة لها، وجدت ساكنًا آخر هناك، طردني فلكمتُه في وجهه وذهبتُ إلى صاحبة البناية وقد تذكرتني بصعوبة بالغة بعد أنْ عصف الزمن بذاكرتها، وأخبرتْني بكلِّ بساطة أنها في السنة الثالثة باعت كلَّ ما يخصني إلى تجار متفرقين بعد أنْ يئسَت من عودتي، وخاصةً أنها لم تتحصل على الإيجار لفترة كبيرة، "لايهم ولكن أين أوراقي والصور التي كانت في المنزل."

قالت في بساطة: "لا أعلم!"

لم يخلِّصْها من بين يدي إلَّا الرجال الذين تجمعوا على صوت استغاثتها، أُودِعْتُ السجنَ ليومين، بعدها خرجتُ وبحثتُ عن الضابط الذي طلب مني صورتها منذ ستة أعوام، أخبروني أنه انتقل للقاهرة، ذهبتُ إليه في مقرِّ عمله الجديد وبالطبع لم يتذكرني، ولكنه – وعلى عكس ما توقعتُ – أبدى رغبته في المساعدة، ووعدني أنه سيحاول الحصول على تلك الصورة من المحضر الخاص بي، هاتف بعض الأشخاص وطلب مني العودة إلى مدينتنا الساحلية كي ألتقي أحد أصدقائه، وقد قام هذا الأخير بالبحث طويلًا في الملفاتِ القديمة، ولم يعثر على أثر للملف الخاص بزوجتي، الصول العجوز أخبرنا أنَّ ذلك الملف من المرجَّح أنه ذهب في الحريق الذي داهم حجرة الملفاتِ في المخفر منذ أربع سنوات، عدتُ كالمجنون إلى القاهرة مرة أخرى أبحث عن بيت عائلتها حتى وجدته أطلالًا، فقد هدم كي يُقام برج مكانه وخاصة أنَّ أمها رحمها الله كانت مستأجرة للمكان وليست صاحبته، من جديد عدتُ أدراجي وبحثتُ عن استديو التصوير الذي قمنا فيه

بالتقاط صور زفافنا، ولكني وجدته قد اختفى، وقد تحوَّل نشاط المكان إلى شركة لتأجير السيارات، ذهبتُ على غير هدى ووجدتُ نفسي أمام البحر في نفس المكان حيث أخذها مني، للحظات كنتُ على شفا الإقدام على الخوض في لُجَّته، والانضمام إليها في عالمها الآخر.

"لماذا تفعل ذلك؟!" كنتُ أنظر إلى البحر في مرارة تكاد تفتك بقلبي وتعتصر ذكرياتي ونفسي المبعثَرة، حتى أتى ذلك الهاتف يثرثر في أذني كأنه صوت ملائكة الرحمة، ويخبرني أنه من حكمة الله أننا لم نحظَ بأطفال لتموت أمهم وتتركهم يتامى كما كانت هي وكنتُ أنا، والهاتف نفسه ألقى في بالي تلك الفكرة التي أنقذتني من رغبة الانتحار وإنهاء حياتي البائسة، بل وأعادني إنسانًا من جديد ....

"عليَّ أنْ أرسمها"

نعم أرسمها، ولكن ما أنا برسام، سأتعلم، أحتاج إلى وظيفة، سأعمل، ومأوى، سيحدث، مرَّ عامان لحقت فيهما بوظيفة متواضعة، واستأجرتُ الغرفة الكائنة على سطح البناية التي قطنا فيها والتي شهدت ليالِيَ حبنا الدافئة، في الصباح كنتُ أعمل، وبعد ذلك أذهب لذلك المرسم الذي علَّمني صاحبُه كيفية الرسم وبعد مرور ثلاثة أشهر، وبعد أنْ وجدني مُهتمًّا بتعلم الرسم في وقت قياسيٍّ سألني عن السبب فأخبرته بالأمر، بكي ذلك الرسام الطيبُ ورفض بعدها أنْ يأخذ مني أجرًا، وكان يخبرني أنَّ موهبة الرسم هي عندي بالفطرة ولكني احتجتُ إلى مَن ينميها ويزكيها، بعد سنة كاملة أتقنتُ الأمر، وجلستُ في تلك الليلة المقمرة ذات الهواء العليل الذي داعب جسدي العائد إلى الحياة، ورسمتُ أول لوحة لها فبكيتُ وبكيتُ، وتذكرتُ كل شيء كأنه كان بالأمس القريب .... لمستها .... حضنها ... دفئها .... غضبها ... تنهدها ... رقتها ... حزنها ... بكاءها ... ضحكتها الرقراقة وكلمة "حبيبي" التي كانت تشعرني أنها تأتي من فم مئاتِ الأمهاتِ اللواتي اجتمعنَ معًا في صوتها، بكيتُ كثيرًا تلك الليلة ولم أنم حتى الصباح، كنتُ أتذكر كلَّ شيء عنها إلَّا بعض ملامح وجهها كأنها تتوارى عني، عشرات اللوحات ثم مئات يقبعون في حجرتي الصغيرة، سنتان مرتا من محاولات رسمها ولكن في كلِّ مرة، وبعد إنْ أنتهي من لوحة لها أشعر أنَّ هناك شيئًا ما ينقص ملامحها، ذلك الأمر الصغير الذي يميز أيَّ عمل ينبع من القلب، ذلك الأمر الصغير الذي احتاج مني محاولات عديدة حتى أجده، كأنَّ إيجادي لتلك التفصيلة الصغيرة هي جسمانها الذي لم أوفَّق في إيجاده.

والآنَ اقتحمَت الموجة الساحل وهي تقترب، طوفان لا يُبقي ولا يذر هزَّ البلاد وأغرق بلدانا ومدنًا، وقد وصل إلى مدينتنا، كأنه قادم إليَّ كي يعيدني إليها من جديد، ولكن عليَّ أنْ أنهي التفاصيل الأخيرة في اللوحة التي أمامي، المياه على ارتفاع أربعة طوابق، وتعلو كلما أخذت في طريقها سياراتٍ وبشَر وأشياء كثيرة تختلط ببعضها البعض، الصراخ الجنونيُّ يقل كلما كنس البحر ذراتٍ من البشر تبدو أمام جبروته كرمال في القاع، وصل الماء إليَّ، تلوتُ الشهادتين ولا يزال القلم في يدي، طوحني الماء يمنة ويسرة يغوص بي ثم يصعد فأدور في حلقات كأني لعبة في يديه، طوف خشبيّ حمل حامل اللوحة التي لم تسقط وقد طفا اللوح الخشبيُّ باللوحة في شموخ وأنا أبتعد عنها، صارعتُ الأمواج حتى نجحْتُ في الصعود أعلى اللوح الخشبيّ، القلم لا يزال في يدي التي تنهي بسرعة ما بدأته، الطوف يعدو على الماء يحمل آخر أيامي وأهم أعمال حياتي بسرعة جنونية، أكاد أنتهي والجنون يصطرخ من حولي والكلُّ يتمزق، جمادات وبشر وعربات وزوارق

وحيوانات وأشجار، وفي لحظة توقف فيها الزمن وجدتُ تفصيلتي المفقودة، نعم فعلتُ، ابتسمتُ رغمًا عني وعن الجنون المحيط بي، إنها غمْزتها الرقيقة التي ترتسم على الجانب الأيمن من شفتها، والذي يرتسم عليه حزن بسيط ورقَّة متناهية لا تلمحها إلَّا عين مُحِب عاشق، نظرتُ لصورة حبيبتي المكتمِلة وبكيتُ حبًّا وبكيتُ شوقًا وبكيتُ فرحًا، واحتضنتُ الصورة بعد أنْ نزعتُها من الحامل الذي طار بعيدًا في الهواء بفعل الرياح، واستعددتُ للموت وأنا مُغمِضٌ عينيَّ محتضنًا حبيبتي وعائدًا إليها، وقبل أنْ أختفي رأيتُ على يميني ذلك المزارع الباكي أعلى تلة عملاقة يحاول زرع فسيلة في يده قبل أنْ يصل الماء إليه، أغمضتُ عينيَّ واستسلمتُ في خشوع وتلوتُ الشهادتيْن، وانتظرتُ لقاءها وتحت زخَّات الموج المتدافعة وجسدي الذي ينساب مع الماء المندفع ويتحرك معه كورقة في مهب الريح، رأيتُها هناك تمد يدَها من بعيد مبتسِمة كعادتها .....**انتهى**

"ألبرت" ولغة الحرب

"لكل حرب لغة، ولكل لغة قاموس، وقاموس الحرب متسع باتساع مآسيها، ولكل مأساة حكاية ولكل حكاية عنوان. وقت الحروب يجب أن يضحي الجميع وأن تختفي لغة الأنا، فإنها إذا ما ظهرت فستصبح العواقب وخيمة ولو على مر السنين"

"ألبرت" عامل التذاكر في محطة القطار الليلية في مدينة لندن، دائمًا ما يعمل ليلاً على الرغم من أن له الحق أن يبدل ورديته شهريًّا ولكنه لم يطلب ذلك أبدًا، هو شخص منطوٍ و طيب جدًّا لدرجة مخيفة، سليمٌ إلى أبعد الحدود، يخاف من أي شيء وكل شيء.

يعيش "ألبرت" مع أخيه وزوجته وابنهما الصغير ذي التسعة أعوام "فريد"، وهو لم يتزوج إلى الآن، و دائمًا ما يغلق عليه بابه ولا يجلس مع أخيه وزوجته كثيرًا، حتى ابن أخيه لم يكن يتكلم معه كثيرًا، بل على النقيض لم يُكِنّ فريد لعمه ألبرت أيَّ احترام أو تبجيل، بل كان يراه ضعيفًا وخائفًا وكسولاً ...

"هتلر" وحلم "رايخ" الألف عام، بدأت الحرب العالمية الثانية في الظهور بعد الحرب الألمانية البولونية للسيطرة على مضيق "بولونيا" ومدينة "دينتغرى" وضمهما للإمبراطورية الألمانية، وبدأ "هتلر" في تنفيذ مخططه الجهنمي للسيطرة على أوروبا، وهبت أخبار الحرب على العالم كالصاعقة؛ لأن الجميع يعرف أن هذه الحرب ليست كغيرها بل إنها بداية النهاية.

أصبحت بريطانيا في مأزق بعد أن أعلنت عن دخولها في الحرب وقد انهزم جيشها في فرنسا، وإذا انهارت إنجلترا فستصبح كأنها مقاطعة نازية وستنهار الإمبراطورية البريطانية في العالم كله وستتعاقب ثورات التحرير من الشرق الأوسط للأقصى لأفريقيا والقارة الهندية، فلا يوجد مفر، كانت بريطانيا هي الأمل، وقد واجه الشعب البريطاني أسوأ الحروب ولكنهم حاربوا كالأسود، فقرر هتلر إبدال خطته التي كان أسماها "روتاري"، قرر أن يضرب الإنجليز في عقر دارهم، أن يضرب المدنيين في مدينة لندن أكبر مدينة في العالم، واهتز العالم للغارات المستمرة على "التايمز" وكانت الغارات لا تتوقف على العاصمة الإنجليزية، كان المدنيون يختمون في الأنفاق ومحطات "المترو"، وقد شاع الخراب والدمار حتى أنه في يوم واحد ألقي 200 ألف طن من القنابل على المدينة واشتعلت مئات الحرائق ومات أكثر من أربعين ألف مدني وجرح أكثر من 200 ألف ولم تعد لندن كما كانت أبدًا .....

"ألبرت ... ألبرت أين أنت يا أخي"

"أنا هنا يا ريتشي ... ماذا هناك؟"

"سأضطر للسفر أنا وزوجتي إلى مدينة "كوفنترى" ... وصلتنا أخبار أن ابن أخيها قد أصيب في الحرب".

"آسف لذلك .... ومتى ستسافران؟"

"غدًا .... ونريدك أن تعتني جيدًا بفريد، فهناك خطورة عليه إذا ما سافر معنا"!

"سأفعل".

"خذ يا ألبرت هذا السلاح .."

(ألبرت بخوف واضح): "لا يا ريتشي، لا أستطيع أن أحمله"!

"عليك هذا، سيدخل الألمان في أي يوم إلى لندن وعليك أن تعتني بفريد"

نظر ألبرت بخوف وأخذ السلاح من يد أخيه، وعلى مقربة منهما كان يقف فريد خائفًا والدموع في عينيه ...

ودَّع ريتشي وزوجته فريد وداعًا كأنهما لن يرياه مجددًا ....

فريد: "أصحيح يا عماه أن الألمان سيحتلون لندن ويقتلوننا"؟

ألبرت بحزن واضح: " لا أعلم يا فريد... لا أعلم! ".

***

في اليوم التالي، خرج "ألبرت" إلى حدود لندن ليتجه إلى قرية "بنشزم"، وهى قرية جميلة تتسم بالهدوء وكانت في منأى عن الغارات الألمانية حيث كان يحضر لوازم المنزل والخضروات من هناك بسعر أقل وأهل البلدة يعرفونه.

"ألبرت... عماه ألبرت"!

نظر ألبرت خلفه وقد كان في طريقه للعودة خارجًا من القرية، فوجد "رافى" الصغير ذا العشرة أعوام من عمره يتجه إليه قائلا :

"عماه، خذني معك للمدينة"!

نظر إليه ألبرت بسلبية، وقال:

لكن والدك سيقلق عليك!

أعدك أنى لن أتأخر، وسأعود بالباص قبل الليل، وقد توقفت الغارات على لندن قبل أيام؛ فلا تخف.

لم يجبه ألبرت، ولكن أمام إلحاحه اضطر أن يصطحبه معه إلى لندن، حتى إذا ما اقترب ألبرت من بيته اختفى الصغير قائلا "سأعود بعد قليل يا عماه، لا تقلق ....."

تركه ألبرت وصعد لشقة أخيه وهو يحمل لوازم المنزل، فوجد فريد جالسًا في ركن المنزل ممسكًا بالسلاح، والدموع تغرق وجهه.

اتجه إليه ألبرت محاولاً أخذ السلاح منه، ولكن فريد لم يعطه إياه قائلا:

"دعني، اذهب عنى"!

ألبرت بحزن: "لماذا يا فريد؟"

"لأنك تركتني وخرجت وعندما استيقظت لم أجدك فى البيت، والألمان قادمون وأنت تركتني فريسة لهم".

لن يأتوا يا فريد!

صرخ فريد بوجهه قائلاً: "وما أدراك؟"

أدار ألبرت عينيه الناحية الأخرى ولم يحاول أخذ السلاح مرة أخرى، ولم يحاول حتى طمأنة ابن أخيه، بل ذهب ليعد الطعام كان شيئًا لم يحدث، كأن السلبية أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياته .

جلس فريد وألبرت يأكلان على نفس المائدة، وفريد يرمق عمه بنظرات خائفة والسلاح ما زال في يده، وفجأة اهتز كل شيء وانقطعت الكهرباء فقد كانت طائرات الرايخ تدك مدينة لندن دكًّا .. أخذ فريد الصغير يصرخ بلا توقف وهو في حضن عمه، والاثنان منزويان في ركن المنزل تحت المنضدة، وأخذ الصغير يردد: "الألمان قادمون الألمان قادمون سيقتلوننا" ... وصرخت صفارات الإنذار في الشوارع وازداد القذف واشتعلت الحرائق وزاد الجنون ...

كاد قلب ألبرت أن يتوقف عن الخفقان وهو يستمع لصراخ فريد: "الألمان قادمون، الألمان قادمون"!

أخذ ألبرت يبكي ولم يكن يفكر على الإطلاق ... ثم هدأ الجو قليلاً، وسمع الاثنان صوت امرأة تصرخ في الشارع: "أتى الألمان، قتلوا زوجي، قتلوا زوجي"! وقد قُتل زوجها أثناء الغارة الجوية بسبب قذف الطائرات للمتفجرات.

هبط قلب فريد أرضًا وهو يستمع لذلك الصوت القادم من أسفل الدرج وقد كان صوت قدم شخص يصعد ببطء.

نظر فريد لعمه خائفًا وقال بصوت مذعور: "إنهم الألمان، خذ السلاح واقتلهم، عماه خذ السلاح واقتلهم"!

أخذ ألبرت يبكي، ولم يرد على الصغير.

اتسعت عينا الصغير وقال: "إن لم تقتلهم سأذهب أنا لأفعل، لا أريد أن أموت !"

استمر ألبرت في البكاء، فذهب الصغير وهو مذعور، وصوت الأقدام يقترب، فاتجه للباب ووقف وراءه إلى أن فتح الباب .. أما ألبرت فظل يبكى وهو في مكانه إلى أن سمع صوت رصاصة قد أطلقت ثم سكون تام ...

قام ألبرت وسار ببطء إلى الطرقة التي تقع في مواجهة باب المنزل فوجد فريد يقف مذعورًا ويلهث بلا توقف وقد تحجرت دموعه في مقلتيه، وهو ينظر للجثة التي أرداها وقد كانت جثة طفل في مثل عمره!

نظر ألبرت بهلع وجلس أرضًا عند وجه الجثة وقلبها، ليجد أنه الطفل "رافي" الذي جاء معه منذ ساعات قليلة من القرية، وقد جاء إلى شقة ألبرت ليحتمي بها خوفًا من الغارة الجوية، ولكن رصاصة "فريد" أصابته وقتلته على الفور، أخذ ألبرت يبكي ويقول لفريد: "ماذا فعلت؟... ماذا فعلت؟ !".

قال فريد بصوت خائف متقطع: "ظننته جندي ألماني، فأطلقت الرصاصة بمجرد دخوله من الباب، لقد قلتُ لك اذهب أنت ولكنك تركتني، لم أقصد أن أقتله.. سيدخلونني السجن "

جلس ألبرت بجانب الجثة ما يقرب الساعة إلى أن قام مكانه وحمل الجثة ونزل إلى قبو المنزل، وأخذ يحفر وفريد يبكي بجانبه ... بعد أن أتم الحفر دفن الصغير ووضع التراب عليه كأن شيئًا لم يكن .. ثم طلب من فريد ألاَّ يخبر أباه وأمه بما حدث ....

***

لندن – 1945 ... مرت السنون، وانتهت الحرب ولم يستطع هتلر احتلال مدينة لندن طيلة هذه السنوات من الحرب ... خسرت النازية وانتهى حلم الألف عام ... واختفى ألبرت من كل لندن ليتناسى ما حدث.

كان يقف بمكنسته ينظف أرض القطار

"ألبرت .. ألبرت ..ألا تعرفني؟"

نظر ألبرت لهذه السيدة التي تنادى عليه محاولاً استكشاف ملامحها

ذهب إليها وفي يده مكنسة التنظيف قائلا:

"معذرة، ولكن من أنت سيدتي؟"

"أنت لا تتذكرني ولكني أتذكرك جيدًا، قل لي ماذا تفعل هنا؟ ألم تكن تعيش في لندن؟"

"نعم سيدتي، ولكني تركتها بعد الحرب وأعمل عامل نظافة على هذا القطار، ولكن من أنت؟"

(بابتسامة): "أنا السيدة "مرفي" زوجة "بارنت" بائع الخضروات بقرية "بنشزم" .. لقد كنت تأتي دائمًا لتشتري منا الخضروات، ألا تتذكر ولدي "رافي"؟"

اتسعت عينا ألبرت قائلاً: "نعم، أتذكره"

(مبتسمة): "كم أفتقد هذا الصغير"!

(بحذر): "ولكني سمعتُ سيدتي أنه فُقِد"

عقدت السيدة مرفي حاجبيها قائلة :

"من قال لك هذا؟" ثم فكرت قليلاً فقالت مبتسمة : "من الممكن أنك لم تتابع أخباره"!

لقد انفصلتُ عن زوجي وذهبتُ لأعيش في مدينة "دينفري" في بداية الحرب إلى أن أرسل لي زوجي قائلاً إن رافي دخل مدرسة داخلية ثم سافر ليكمل تعليمه وهو الآن حبيب قلبي في أمريكا في كلية الهندسة ويراسلني كل فترة ... كم افتقده! انظر إلى هذا الخطاب الذي أرسله فقد كان آخر خطاب منه الشهر السابق.

أمسك ألبرت بالخطاب وتركها فذهلت وأخذت تنادى عليه ليحضر الخطاب ولكنه لم يرد، وقد كان القطار يقف في محطة نزولها ويستعد للذهاب فاضطرت للنزول تاركة معه الخطاب مطلقة السِّباب، وهي ترى القطار يكمل سيره، فما كان منها إلا أن ذهبت في طريقها...

ألبرت الآن يجلس عند مؤخرة القطار ويقرأ الخطاب الوهمي الذي يرسله الأب الحزين باسم ابنه لأمه حتى لا تموت حسرة على ضياعه، ولا أحد إلى الآن يعرف أين هو ...

" أمي.. كم أفتقدك! أنا الآن في الولايات المتحدة، أدرس الهندسة وأعمل في التجارة... الحال ميسور هنا، ولا أعرف إن كنت أستطيع أن أعود قريبًا لأراكِ، ولكن طالما أني على علم أنك تقرئين رسائلي وان هناك قلبًا يحبني كقلبك فكفى هذا ....."

طوى ألبرت الخطاب وعيناه مليئتان بالدموع وهو يفترش أرض القطار، وقد أخذ يضرب رأسه بالجدار نادمًا على كل شيء، نادمًا على سلبيته التي تسببت في قتل طفل .. نادمًا على سلبية قد جعلته يهرب وينسى ... نادمًا على خوف أصابه فهرب من كل شيء ... نادمًا أنه لم يخبر الأب المكلوم بمكان ابنه إلى الآن ... نادمًا على خوفه من مواجهة الحقائق ... نادمًا على حياته التي أضاعها كعامل نظافة ... كإنسان يرضى بأي شيء ... كإنسان لا يتغير ولا يترك السلبية أبدًا ... نادمًا على خفقان قلب أم لابنها وهي تظنه يمشي على الأرض بينما هو مدفون تحت ثراها.

بكى ألبرت كثيرًا، بكى بطول رحلة القطار، ولكن القطار لم يكن بين مدينتين..... بل كان قطار العمر.

أيام

العَمُّ "فتحي فتح الباب"، رجلٌ فى الثانية والستين من عُمرِه، يعملُ فى مهنته منذ أنْ كان عمرُه ثمانيةَ عشرَ عامًا، ما يفوق أربعين عامًا قضاها ساعيًا للبريد، أطلَقَ عليه أبوه فتح الباب اسم "فتحي" لأنَّ عرَّافة القرية طلَبَتْ منه أنْ يفعل ذلك؛ عسى اللهُ أنْ يفتَحَ به للأُسْرَة خيرًا كثيرًا ومالًا وفيرًا وعيشةً هنيئة، بعد ولادته بعام ماتَتْ أمُّه، وبعد ذلك بعام انقلب حالُ (فتح الباب) ليصبحَ أشدَّ فقرًا، الأراضي التى أخذَتْها حكومةُ الثورة من الإقطاعيّين ووزّعَتْها على الفلاحين لم يكُنْ له نصيبٌ منها، قيل إنَّ اسمَه سقَطَ من الكَشف، فتح الباب أخبرَ ابنَه عندما شبَّ قليلًا أنه لا يزال يتذكَّر ركضَه خلفَ ضابط الجيش السَّريع الحركة، والذي يحمل كشفًا بأسماء المزارعين، ويتوسل اليه أنه يحتاج لقطعة أرض وأنَّ اسمَه قد سقط أو أُسْقِطَ بالخطأ، وكأنَّ الضابط لم يَعُد يسمعُه، واكتفى بكلمات مقتضبة "اسألْ شيخَ البلدِ عن ذلك!"، يتذكر فتح الباب وقفتَه بعدما أنهكه الرَكضُ وبكاؤه الحارُّ، "اسمى يا فتحي يا ابني سقّطوه، مش عارف؛ يمكِن العُمدة ولا شيخ البلد عمل كدة قاصد، والله ما عارف ياابني!"

(فتحُ الباب) بعد أنْ كان مستبشرًا بابنه فتحي انقلَب بِشْرُهُ غَمًّا سنةً بعد الأخرى! وكلما ازدادوا فقرًا ازداد تشاؤمًا من الابن، كان ينظُر له شذرًا وكأنه أصلُ الشرور، دائمَ الغضبِ منه والصَّغيرُ لا يعرف لذلك سببًا، تزوَّج الأبُ بعد وفاة زوجته بثلاثة اعوام؛ كي تقوم الزوجة الجديدة بتربية فتحي وأخته التي تكبره بعامَيْن والتي دائمًا ما ترقد على سرير المرض، أنجب من زوجته الجديدة توأمَيْن على الرغم من أنَّ الزوجة كانت عاقرًا– أو هذا ما قيل له عند زواجه بها– ازداد غمًّا؛ والأفواه تزداد والمالُ يقلُّ، بعد أنْ شبَّ التوأمان ليبلغا عامَها الرابع أصيبتْ أمُّهما بالعَمى.

فتحُ الباب أخبرَ فتحي أنَّ هناك يومَيْن لا يزال يتذكرهما بوضوح بالرغم من مرور السنواتِ؛ اليوم الذى ركض فيه خلفَ الضابط يتوسل إليه، واليوم الآخر الذي خرج فيه من القرية وتجاوز حدودَها حتى وصل للتلِّ الغربيِّ، كما كان أهل القرية يُطلِقون عليه، وهو اليوم الذي أصاب فيه العمى زوجتَه الجديدة، صعد أعلى التلِّ وجلس ناظرًا إلى القرية وباكيًا على حاله، حتى هدأتْ نفسُه قليلًا، وتردد في داخله صوتٌ يهتف به: "أنَّ هذا هو نصيبُه من الحياة، وأنَّ ما حدث كان سيحدُث بشكل أو بآخر"، يومها عاد فتحُ الباب لبيته كأنه رجل آخر؛ أصبح أكثر ودًّا مع الجميع ومع فتحي خاصةً، فأصبح لا ينظر لابنه بنظرة التشاؤم وعدم الرضا.

ماتت الأخت الكبرى لفتحي بعد مدَّة، وبعدها التحقَ فتحي بالبريد بعد أنْ زكَّاه شيخ القرية لدى أحد الرؤساء بمصلحة البريد، في البداية تعجَّب فتحُ الباب من صنيع شيخ البلد؛ لأنه لم يطلب منه توصيةً لابنه، ما خطر بذهنه أنه قد فعل ذلك كي يُرضي ضميرَه وأنَّ له يدًا في إسقاطه من كشف توزيع الأراضي، وخاصةً أنه يرى الفقر المدقع الذى تعيشُ فيه أسرته، بعد أنْ التحق فتحي بالبريد أصبح راتبه هو مصدرُ دخلُ الأسرة الوحيد، فأبوه قد أصابه الهَرَم، وحَلَّتْ عليه أمراضُ الشيخوخة، وكان على زوجة أبيه الكفيفة أنْ تعتني به

وبطفليها؛ فقد عُيِّنَ فتحي في مدينة الإسماعيلية، وكان عليه أنْ يرسل شهريًّا كلَّ راتبه بعد أنْ يستقطع لنفسه القليلَ؛ كي يقتاتَ به في غربته، ماتت زوجةُ الأب بعد أنْ عصف بها المرضُ بعد التحاقه بالعمل بخمسِ سنواتٍ، عاد الابن في إجازة قصيرة وحضر مراسم الدفن، الصبيَّان تطوعَت خالتهما لتعتني بهما وقد كانت تعيش فى بندر شبين الكوم، الأبُ الذي يتحرك بصعوبة طمأنَ ابنه قائلًا: "سأعتني بنفسي يا بُنَيَّ، لا تقلق!"

"سأطلب نقلي قريبًا من هنا يا أبي"

مدير المصلحة لم يفعل له شيئًا، بل قال له: "هل جُنِنْتَ، احمَدِ اللهَ أننا لا نزال نُبقي عليكَ؛ أنتَ لم تحصُل حتى على الشهادة الابتدائية!"، ثم هدأ ونصحه أنْ يتوارى عن الأنظار وألَّا يطلب من مرؤوسيه شيئًا أبدًا كي يضمن بقاءه في وظيفته، اتَّبَع فتحي النصيحة لمدة أربعٍ وأربعين سنة لم يطلب فيها شيئًا إلَّا مرة واحدة سيأتي ذكرها لاحقًا.

مات الأبُ؛ فعاد فتحي كي يدفنه ويقيمَ العزاء، أخبره الناسُ أنَّ أباه ماتَ ليلًا ولم يكتشِف الناسُ وفاتَه إلَّا بعد يومَيْن عندما جاءت السيدة العجوز التي استأجرَها فتحي مسبقًا لتقوم بتنظيف البيت وإعداد الطعام لأبيه المريض مرتيْن في الأسبوع، بكى يومَها فتحي كثيرًا وشعر أنه وحيدٌ في الدنيا، بعد عام من موت أبيه ذهب لشبين الكوم عازمًا على زيارة أخويْه غير الشقيقيْن ليجد أنَّ خالتهما وزوجها والولديْن هاجروا من المدينة قاصدين الإسكندرية ولم يستدلّ لهم على عنوان، شعر أنه لم يبقَ له إلَّا عملُه في مصلحة البريد، هو الشيء الوحيد الذي تبقَّى له من حُطام الدنيا، راتبه لا يعينه على الزواج؛ فنتيجة لعدم حصوله على أيِّ شهادة بقي على حاله كلَّ تلك الاعوام دون ترقية، ساعيًا للبريد يوصل الرسائل إلى ذويها، سنواتُ الكُتَّاب التي قضاها في بداية حياته هي التي ساعدتْه على إجادة القراءة والكتابة.

عمُّ فتحي الآن يجلس على ضفة ترعة الإسماعيلية يلقي بالحصى الصغيرة فى ماء الترعة الكبيرة، ويحتسي كوبَ الشاي الذي يعدُّه له (رائد) صاحبُ نَصْبَةِ الشاي.

"كيف الحال يا عمّ فتحي؟"

لا يرد، فيستأنف رائد "ما بالك اليوم شاردًا؟"

" هذه حالي كلَّ يوم يا بُنَيَّ!"

أتى زبونان آخران؛ سائق أُجْرة ومساعدُه... ألقَيا السَّلامَ، وجلسا على الحصيرة الصفراء التي تُجاوِر نَصْبَةَ رائد، أخذ رائد يُعِدُّ لهما كوبيْن من الشاي المغلي المطَعَّم بأوراق النعناع الخضراء.

"لماذا لم تتزوج إلى الآن يا عم فتحي؟"

ابتسم فتحب "الزواج له ناسُه يا ابني"

كان يرتشف الشايَ في هدوء والهواءُ العليلُ والخضرةُ المترامِيةُ الأطرافِ تَمدّئ سكينتَه، يُمسِكُ في يده عود حطبٍ جافٍّ يرسم به دوائرَ على الأرض

"ألا يزال الحالُ كم هو عليه يا عمّ فتحي؟"

"أتقصدُ في العمل؟"

"نعم!"

"نعم لا يزال، دعواتَك يا ابني"

الأعوام العشرة الأخيرة كانت وبالًا عليه، الرسائلُ البريدية كانت تقلُّ عامًا بعد الآخر، وحلَّتْ محلَّها وسائلُ التواصل الحديثة، عندما سمع عمّ فتحي ذلك الاسم لأول مرة كان فى حيرة من أمره "ايميل، يعني إيه ايميل؟!"

العام الماضي لم يكن هناك رسائلُ بتاتًا، كان يذهبُ كلَّ يوم إلى المصلحة يسأل عن رسائل جديدة فلا يجد، فيجلس لا يقوم بشيء معين، أخبروه أنَّ الطرود لا تزال تعمل جيدًا ولم تتأثر أبدًا، تعجَّبَ من الأمر؛ فسأل رئيسَه: "ولماذا لا يرسلون الطرود باستخدام هذا الايميل؟!"، ضحك مديره ولم يعرف فتحي سببًا لضِحكه، الصناديق البريدية الحديدية سُرِقَ معظمُهما من المدينة والباقي صدئ واهترأ، عندما كان فتحي يمرُّ على تلك العلب الصَّدِئة – أو ما يجدُه من أطلالها – كان يُمَصْمِصُ شفتيْه فى أسى قائلًا: "لاحولَ ولا قوةَ إلَّا بالله، زمن عجايب!"

كان يرى الحواسيب فى المصلحة، وعَلِمَ أنها السَّببُ فى تلك النكبةِ شأنُها شأنُ الهواتف الحديثة ذوات الأنظمة الأندوروريد...

"وما الأندورويد؟" سأل نفسه وهو الذي لم يحمل في حياته محمولًا عاديًّا؛ فأنَّى له أنْ يعرف الفرق بينه وبين الأندورويد؟!

مرَّ عامٌ آخر، وعندما أخبروه أنَّ مدير المصلحة صرَّح أنه لا حاجةَ له فيه، وأنَّ قرارَ فَصْلِهِ من المصلحة سيصدر قريبًا، بكى كثيرًا ذلك اليوم، فأدخلوه للمدير العام ليطلب منه عمّ فتحي أنْ ينقله لمكان آخر لا يزال نظامُ البريد مُفعَّلًا فيه، أجرى المدير مكالمةً ثم التفتَ إليه قائلًا "أبْشِر يا سِيدِى!، هناك بعضُ القرى لا تزال تستخدم البريدَ الورقيَّ"

قال عمّ فتحي والدمُ يكادُ ينفرُ من عروقِه، والحسرةُ ومرارة ضياعُ السنين تملأ قله: "أعود لقريتي في المنوفية يا بيه، أبوس إيديكم!"

استرسل عمّ فتحي وكأنه لا يرى المديرَ أمامه، بل يرى تاريخًا طويلًا وعملًا شاقًّا، في بداية تعيينِه كان في قرية صغيرة تابعة لمدينة الإسماعيلية كان يذهب على قدميْه يوزّع البريدَ كلَّ يوم، عشر ساعاتٍ يسير خلالها لا يملُّ ولا يكلُّ داخل القرية وقريتيْن متجاورتيْن، كانت وسيلته الوحيدة للتنقل داخل وبين القرى الثلاثِ هي قدميْه حتى يصلَ للطريق العامّ فيركب عربةً بطيئةً تُصدِر ضجيجًا توصله للمدينة، حيث مصلحة البريد، وحيث توجد الغرفة التي يسكن فيها في إحدى المناطق النائية على أطراف الإسماعيلية، بعد فترة أمدُّوه بحمار، كان حمارًا مُسِنًّا يسير في بطء ويتعب كثيرًا، كان فتحي رحيمًا به ولا يؤذيه، كان رفيق دربه ودائمًا ما كان يتكلم معه ويقصُّ عليه أيَّ شيء يخطُر على باله من حياته الفارغة، الحمارُ كان يومئ بأذنيْه وهو يلتهِمُ علَفَهُ، بعد ذلك أمدَّتْه المصلحة بدرَّاجة بديلًا عن الحمار، وعندما سأل عن السَّبب أخبروه أنَّ الحمار تقدَّمت به السنُّ وصار ضعيفًا ووسيلة غير فعالة، وقد قاموا بجمع كلّ الحمير المسِنَّة التي تتبع المصلحة وباعوها للسيرك.

"هيأكِلُوها للأسد يا سعادتِ البيه، حرام والله!"

تبع فتحي حماره المسِنُّ في رحلة وصوله للسيرك، وسمع صوتَ الأسد وهو يهجم على فريسته من خلف الأبواب "لماذا لم يذبحوه أولًا؟!" من الممكن أنهم وجدوا أنه حمارٌ ضعيف ولن يقاوم الأسدَ الذي سيتسلى كثيرًا في تلك الليلة، قال فتحي لرائد ذات مرة إنه إلى الآن لا يزال يحلُم بزمجرة الأسد ويسمع نهيقَ حمارِه المستغيثِ في أذنيْه فَجْرَ كلّ يومٍ.

"إنت عارف يا سعادتِ البيه، أول جواب وصَّلْتُه كان إيه؟"

كان عمّ فتحي لا يزال جالسًا في مكتب مديره يستعيد ذكرياته بصوت عالٍ، والأخير قد استأنسَ بما يقولُ العجوزُ فترك له العنانَ، شرح عمّ فتحي أنه قد تمَّ تعيينُه عام ألف وتسعمائة واثنيْن وسبعين في أثناء حرب الاستنزاف، كانت الإسماعيلية تُشْبِه مُدُنَ الأشباح وخاصةً بعد أنْ تمَّ ترحيل معظم السكان بعد أنْ تَواصَل القصْفُ الإسرائيليُّ لمدُن القناة الثلاثِ، مصلحة البريد كانت مُهِمَّة جدًّا في ذلك الوقت، لم يكن من الممكن الاستغناءُ عن خدماتها؛ فالجنود المقاتلون على الجبهة والقياداتُ المدنية أيضًا تحتاج للبريد أكثرَ من أيِّ وقتٍ مَضى.

"كانت رسالة من الجيش التاني لأمّ شهيد فى قرية نفيشة 5 كيلو بعيد عن الإسماعيلية، أنا مَكُنْتِش أعرف غير لما الأمّ فتَحِت الجواب وقَرِتُه وبكَت، أنا عارف إنَّ الجيش كان بيوصَّل جواباتِ الشُّهدا بنفسه، لكن حظّي بقا إنه استعان بينا ساعتُها!"

ظهر التأثُّر على وجه المدير وكأنَّ على رأسه الطير، أكمل عمّ فتحي كأنه يحدِّث نفسَه؛ فتارةً يضحك، وتارةً يُمَصْمِصُ شفتيْه حسرةً على الماضي

"والمبنَى ده كان موجود يا عمّ فتحي؟"

"المبنى القديم دمَّروه اليهود يا بيه، نقلونا مبنى تاني صغيَّر وكان حواليه دُشَم وخرسانة، لإنَّ البلدة كان لسة فيها ناس، مترحَّلُوش كلُّهُم"

كان الترحيلُ في بداية الحرب اختياريًّا، ولكنه بعد ذلك أصبح إجباريًّا لإعداد الجبهة للمعركة الفاصلة، ولكن بقي البعضُ ممَّن يقوم بمساعدة الجيش فى العملياتِ الميدانية، وعملياتِ الإمداد والتموين.

"أنا فاكر إني كنت بَوَصَّل مرة جواب لواحد مراتُه وعيالُه اترحَّلو ع المنصورة وهو فِضِل غصْبَ عنه لأنَّ الجيش عايزُه، كان أُسْطى ميكانيكي بس إيه، إيديه تِتْلَفّ في حرير"

"وبعدين يا عمّ فتحي؟"

"عينَك ما تشوف إلَّا النُّور، والضَّرْب اشتغَل عليه، كان هو في ورشة تبَع الجيش متدارية في وسْط المباني"

"ايه اللي حصلُّه؟"

"رُحْت لقيتُه سايح في دمُّه، طيارات اليهود ضربتُه بالقنابل، الله يرحمُه! غَمّيت عينيه وحَطّيت الجواب فى جيب جاكتته، ورُحْت بلَّغْت الشرطة العسكرية"

مرَّتْ ثوانٍ، والصَّمتُ قد أطبَق على المكان

"ودى آخرتها يا بيه، بقا الكمبيوتر أحسَن مِنّنا!"

قام عم فتحي من مكانه، وألقى السَّلام وخرج، بعد يومَيْن صدر أمرُ نقْله بقريته التي تقع في محافظة المنوفية، عاد لبيته القديم؛ ليزيل غبارَ السنين عن البيتِ الطينيّ ذي الطابق الواحد، ذكرياتِ طفولة بائسة وحياة أكثر بؤسًا.

القليلُ من الرسائل البريدية كانت تأتي بين الحين والآخر من وإلى القرية، فبعضُ الفلاحين البسطاء لديهم أبناءٌ يعمَلون بالخارج يُرسِلون إليهم الرسائلَ والنفقاتِ أيضًا، كما أنَّ أولئك الفلاحين لا يوجد لديهم حواسيبُ؛ فالتكنولوجيا الحديثة لم تعرِف لبيوتهم طريقًا بعد، قضى عمّ فتحي ثلاثة أعوام فى قريته يعيش فى سلام داخليّ يذهب إلى مكتب البريد فى المركز التابع له كلَّ يومَيْن يُسلِّم ما لديه من رسائل ويتسلَّم الأخرى الواردة، تمُرُّ الشُّهور وعددُ الرسائل يتناقصُ والرجلُ الطَّيِّبُ لا يعرف سببًا لذلك، حتى أنه وجد أنَّ الصندوق البريديَّ الوحيدَ الموجود في موقف القرية الرئيسيّ أصبح مستودَعًا للقمامة!

استيقظ عمّ فتحي مبكِّرًا في يوم من الأيام، وذهب إلى هناك وأخرَجَ القمامةَ، ونظَّفَ الصندوقَ واعتنى به خيرَ اعتناءٍ، أخذ السائقون العاملون فى الموقف يتغامزون فيما بينهم وبمجرد رحيله عاد الصندوقُ من جديد مستودَعًا لقمامة البشَر، عم فتحي لا يهتمُّ لأمر الصندوق الحديديّ الصَّدئ إلَّا لرمزيَّته، أمَّا الرسائلُ نفسُها فقد كان يتكفَّل عناء الذهاب إلى البيوت التي اعتاد أهلُها استخدام البريد ويسألهم بنفسه إنْ كانوا يرغبون فى إرسال شيء ما، كان هؤلاء يحبُّونه ويقدِّرونَ صنيعَه عكسَ الصغار فدائمًا ما كانوا يتهكَّمُون عليه، حتى ملَّ من ذلك، لم يبقَ في القرية كلِّها إلَّا بيتٌ واحدٌ يرسل ويستقبل البريدَ بصفة أسبوعية، بيت السِّتِّ "أمّ عماد" أو بيت الخير – كما أطلَق عليه عمّ فتحي.

كان عمّ فتحي يذهب كلَّ ثلاثاء إلى السِّتِّ "أمّ عماد" التي تعيشُ وحيدةً مع ابنة أختها اليتيمة ذاتِ الأعوام العشرة، يقرأ عم فتحي للسِّتِّ الطيِّبة رسالة ابنها الوحيد المغترب عنها فى إحدى الدول الخليجية وفي الأسبوع الذي يليه يذهبُ اليها مرةً أخرى، ليكتب لها

رسالةً كي تبعثها إلى ابنها وفي الأسبوع الذي يليه يستقبل رسالةً من الابن، وهكذا كان يتردد على ذلك البيت أسبوعيًّا يجلس ويقرأ لها الرسالة ويعيد قراءتها؛ فهي لا تعرفُ الكتابةَ ولا القراءةَ، يلبسُ نظَّارته ويسترسلُ في القراءة، ويُضيف من عنده مايعزِّز المشاعر ويُلهِبُها كأنه يقفُ على خشبة المسرح فلا يدرك عظَمَةَ الدور الذي يقوم بتمثيله إلَّا بعد أنْ ينتهي؛ ليجدَ السيدةَ العجوز تبكي شوقًا لابنها، ويجد أنَّ دموعَه هو الآخر قد غادرَت مقلتيْه فيخلعَ نظارتَه ويجففَ دمعَه، تأتيه السِّتُّ "أمّ عماد" بما لذَّ وطابَ من المأكولاتِ الشهية التي تعدُّها بنفسها في الفُرن القديم، و"وردة" الصغيرة تأكل معه ودائمًا ما تشاكسه.

"متْخَلّيني أنا ياامَّه أقرالِك، أنا في رابعة ابتدائي، وبَلاها عمّ فتحي ييجي كلّ مرة وياكُل ع الفاضي"

يضحك عمّ فتحي، ويقول "طَبْ قُومي يا مقْصُوفةِ الرَّقَبَة هاتي لعمّك فتحي مَيَّة"

أمَّا الخالة فتنهرها وتُزغُر لها بعينيها وتقول بصوت يمتلئ بالطيبة "مَعْلِشّ يا عمّ فتحي، بِتّ لسانها فالِتْ، احنا نِقْدَر نِسْتَغنى عنّك؟، محَدِّش في الكَفْر كِلَّاتُه بيقرا الجوابات زيَّك، كأنّ عماد معايا والله، إدّى العِيش لخبَّازُه"

"ربّنا يحفظِك يا سِتّ يا طيبة"

يأتي محمد ابن عمّ عماد؛ فيستأذن عمّ فتحي ويغادر

"مَابَدْرِي يا عمّ فتحي، مستعجِل ليه؟"

"مَعْلِشّ يا محمد ياابني، عندي شُغْل"

يسمع خلفَه ابنَ العمّ يقول ضاحكًا "فاكِر نفسُه بيشتغل بجدّ، ناقِص ياكُلْنا احنا كمان!"

تنهرُه أمّ عماد "مَاتِتْأدِّبْ يا واد يا طِحْش إنتَ"

يمشي عمّ فتحي، والدموع تكادُ تفرُّ من مقلتيْه، يعلم أنَّ زيارة السِّتّ "أمّ عماد" هي الشيء الأخير الباقي له في الحياة، يمشي بخُطى بطيئة بجانب الترعة الشرقية، يتذكر سنواتِ عمره الضائعة وشغفَه في شبابه بتوزيع البريد، وقد كان ذلك هو همُّه الشاغل الذي أنساه

حياتَه وماضيه وزواجَه، توصيل الرسائل كان عنده هو أسمى معاني الحياة، فرحة أمٍّ أو حنين أبٍ أو دموع أخت بعد أنْ يصلَهُم بريدُ الغائبين؛ فيشعر أنه ملك الدنيا وأضاف فيها الكثيرَ، تذكَّر أيامَ الحرب وصوتَ الغاراتِ التي لا تتوقَّف، وولوجَه إلى الجبهة يتناول الرسائلَ من الجنود وأصواتُ القذائف ودانات المدافع لا تُوقِفُه، يخرُج من الجبهة فيحمدَ الله ويسجدَ شُكرًا، ويتهادى إلى مقر البريد المخفيّ يسلِّم الرسائل فتأتي عربة البريد لتأخذ الكلماتِ وتنشرُها عبرَ أثير الوادي.

سنواتُ عمره الستون، ومَشيبُ فوديْه وشَعْرِ رأسِه، ونظَّارته الطبية السَّميكة، ومشيتُه العرجاء بظهْرٍ أحناهُ الزمنُ، وبذلتُه الرمادية التي لا يغيرها... جعلته أشبَهَ بكلمةٍ فرَّتْ من زمن فاتَ تطيرُ في الهواء لا يراها ولا يسمعُها أحدٌ حتى تختفيَ كأنْ لم تكُن.

إلى هنا انتهَتْ حكايتُه، مِن الصَّعب أنْ نسترسِلَ كيف أنَّ محمدَ ابنَ عمّ عماد أتى بحاسوبٍ جديد إلى البيتِ، وأنَّ عمّ فتحي عندما ذهب في يوم ثلاثاء معهود وجد الأمَّ تناجي ابنها فرحةً عبر الكاميرا، نادته ليأتي كي يسلِّم على ابنها ولكنه استأذن في صمت ومحمد ينظر له في استهزاء، أخبروه بعدها بأيام قليلة أنه أحيلَ للمَعاش فسِنُّ تقاعُدِهِ قد حانَ "لكلِّ أجَلٍ كتابٌ" كما ردَّد في نفسه.

جلس عمّ عماد على ضوء قنديل قديم في البيت الطينيّ الذي انقطعَتْ عنه الكهرباءُ منذ زمن بعد أنْ فتحَ دولابًا قديمًا يمتلئ برسائل قديمة وحديثة، كانت تلك هي الرسائلُ التي لم يَستدلّ على أصحابِها طيلةَ سنواتٍ ماضية والتي كانت المصلحة تقوم بإعدامها، فيقوم هو بدلًا من ذلك بالاحتفاظ بها...

على ضوء القنديل أخذ يقرأ أولَ رسالة ودموعٌ لا يراها تفرُّ من مقلتيه، فيقول مُمْصْمِصًا شفتيْه كعادته قبل أنْ يغطَّ في نوم عميق لن يستيقظَ منه بعد اليوم: "أيااااام!".

البحث عن القلادة

قال لها دامعًا:

"حبيبتي لاتذهبي وتتركيني"

"فإنك إن ذهبتِ تذهبيني"

"فارشديني ماذا أفعل لتبقيني؟"

"فبدونك"

"يهرم الزرع ويجف النهر وتموت الشجر في قلبي"

"وإنك لو علمتِ حبي وعشقي لرحمتِني"

"فيا بسمة قلبي وقرة عيني.....عديني.. أن لا تتركيني"

قالت له مبتسمة:

"أعدك حبيبي أني سأعود، فأنا امراتك " ثم نظرت إليه بدلال تصحبها ضحكة طفولية قائلة " لا بل قلادتك، نعم اجعلني قلادتك"!

قال لها:

"حبيبتي، بل قلادتي، لا تذهبي، ابقيْ معي"

– "حبيبي، صدقني، إنما مجرد بضعة أشهر وسأعود، لا أستطيع أن أرفض هذا العرض، سأنهي فترة التدريب، ثم أعود لأعمل في أي شركة كبرى في مدينتنا هنا"

– "ولكني أخاف عليك"

– "حبك معي، سيحميني"

– "لا حبيبتي، ربي سيحميكِ، وأنا على يقين بهذا"

ولكن قلبي هو من أخاف عليه ببعدك عني"

توارت الشمس خجلة من الحبيبين فى هذا الوقت من الغروب، حيث عزفت الرياح لحنًا جميلاً، ورقصت الأشجار رقصة الوداع، ومازال المتحابان يسطران معًا قصة حب، قد يجور الزمن عليها وتبتلعها مغريات الحياة.

***

"مر ستة أشهر إلى الان، وما زلت على نفس الحال يا صديقي"

"كل ما أعلمه أني لا زلت أحبها، بل أعشقها، لا أستطيع أن أعيش بدونها، أشتم رائحتها في كل مكان، عندما أمشي تحت المطر، وأسمع صوت الرياح وإذا بي أسمع صوتها يناديني، يقول لي: "أنتظرك حبيبي، أنتظرك ما حييت"

– "يا صديقي المحب، إن أخبارها قد انقطعت عنك منذ ستة أشهر ولقد بحثت عنها هناك في مقر الشركة التي كانت تتدرب فيها وقد أخبروك أنها قد تركتهم...وبحثتَ عنها في المدينة الكبيرة عشرات المرات ولم تجدها.

يا صديقي، إن الأمر واضح لا يحتاج لتفسير، إن المغريات في هذه المدينة الكبيرة كثيرة، لعلها وجدت أحد الكتاب أو المغنيين أو من أغراها بالمال ليكسب حبها، يا صديقي لقد هجرتك!"

بكى الحبيب ولم يرد، لم يرد لأن قلبه لا يعترف بالوقائع المادية البحتة، فهو لا يرى إلا شيئًا واحدًا فقط، لا يرى إلا القلادة.

***

غريبة هي المدن الكبرى... تشعر فيها بالحيوية، تشعر بأن البشر مختلفون، تتمنى أن تصبح واحدًا منهم، تنتشى بأنوارها في جنح الليل، تمشي على ضفة نهرها، ترى المتحابين جالسين، والأب يمسك بيد ابنته الصغيرة، يساعدها على المشي، فهي تخطو أولى رحلاتها على هذا المكان المصمت المسمى بالأرض، الباعة المتجولون في كل مكان، رائحة الشواء تأتي من بعيد، من لا مكان، صخب السيارات وهي تتسابق، التمثال الأثري الذي يتوسط الميدان والناس تلتف حوله يعانقونه، لو كان حيًّا لذاب قلبه تأثرًا، يحسب أن الناس ما زالوا يعشقونه ولو بعد ألوف من السنين، ولن يعلم أن الكاميرا الرقمية قد تم اختراعها لتلقط صورًا سيشكل هو جزء منها في كل بيت، سألت نفسي هذا السؤال: لماذا نختار دائمًا أن نلتقط الصور سويًّا بجانب التماثيل العتيقة؟، لماذا ليس بجوار عمدان الكهرباء أو شريط السكة الحديدي، لم أصل إلى إجابة.

أراه هناك يمشي في الزحام، هي الليلة الخامسة عشرة له في هذه المدينة الكبيرة، ولايزال يبحث عنها، ما زال قلبه ينبض باسمها، يرى العشاق سويًّا وكلٌّ معه قلادته، ينظرون إلى بعضهم البعض، وكأن الدنيا بأسرها قد انحسرت في هاتين العينين وليس سواهما..قد ظهر له بصيصٌ من الأمل عندما وصلته أخبار عن مكان إقامتها، ذهب إلى هناك سأل الجيران عنها، أخبروه أنها تسكن معهم في نفس المنزل ولكنها قلما تأتي، أحيانًا تظهر كل يومين وأحيانًا تأتي كل أسبوعين، انتظرها الحبيب، وقلبه سعيد يرقص طربًا، لقد وجد قلادته، لم يشعر ببرد الشتاء الذي أحاط به، لم يخف من عواء الكلاب في ظلمة الليل، لا يعرف كم مر عليه وهو ينتظر أمام المنزل العتيق، ساعات أم أيام، لا احد يعلم، فقد تعود الناس أن يروه في هذه المكان ليال طويلة، حتى حسبوا أنه تمثال يشكل ركنًا حزينًا من ديكور وكآبة المنزل العتيق.

حتمًا ستعودين....

لو كل بحار الدنيا قد جفت..... حتمًا ستعودين

لو كل جبال الدنيا قد نثرت..... حتمًا ستعودين

لو كل ووحوش الدنيا قد فنيت..... حتمًا ستعودين

يا بسمة قلبي ستعودين..... لتجديني ظلا منسيًّا

يادرة عمري ستعودين..... تجديني ظهرًا محنيًّا

سأغني ترانيم العشاق..... فى برد ليالٍ شتوية

سأردد أشعار الأعراب.... فى شمس بيداء رملية

سأجوب بحارًا ومدائن ....أنادي عليك بلا روية

سأطوف رمالاً وأماكن.... وأروح بلادًا منسية

أبحث عنهاعن وطني.... فقلبي نبض بلا هوية

حتمًا ستعودين يا امرأتي.... لقلبي شراب وسقية

يا قلادة جسدي.... وفاتنتي.... يا حبيبة عمري يا هدية

كثيرًا ما نسمع عن قصص العشاق القديمة، قيس وليلى، عنتر وعبلة، وغيرهم.. وكثيرًا لم نسمع عن قصص عشق فى زمننا هذا، لو سمعها هذا القيس وتلك الليلى لعرفوا أن الحب ترياق لن يجف وسيظل يشفي من الأسقام حتى آخر الزمان.

وقف الحبيب وانتبه، فشيء يناديه يقول له، ها قد حانت اللحظة، ها قد أتت الحبيبة، أخيرًا حبيبتى، أين كنتِ؟ أين ذهبتِ؟ لا، لا تجيبي، سأسامحك، فقط أعطيني نظرة من عينيك، أشعريني بدفء القرب منك، أراها تأتى من بعيد، تتراقص نسمات الهواء حولها، أرى الناس وكأنهم أصنام لا حركة فيها، أرى السيارات لا صوت لها، لا أرى فى طريق قلادتى، إلا هي ، رأتني، نعم رأتني، إنه أنا..... هل تعلمين من أنا؟

هل تعلمين من أنا؟

أنا الذي ذاب في الهوى

وشرب من كأس الحب فارتوى

ثم فضل السكون فانزوى.....

ثم بكى... فقد غلبه الهوى.....

فنظر إلى السماء وشرد وأغمض عينيه واستوى....
وفجأة... أشرقت عليه الشمس عندما رأى الحبيب..... فاحتوى
ولأول مرة... هدأ وسكن بعدما اكتوى.
فهل علمتِ من أنا؟

رأتني، ولكن مهلاً، ما هذه النظرة العبوس؟، أليست فرحة بلقائي، تتركني وتتبعد، تجري، اتبعها، تصعد إلى شقتها، تغلق الباب وراءها، كأني لم أكن..

حبيبتي، لا أعلم لم تركتني، لم أفعل شيئًا لك لتفعلي بي هذا، هل عذبتك يومًا مثلما تفعلين بي، ولكني أسامحك، وأحبك، وسأظل أحبك إلى آخر العمر، وسأظل أقف على بابك، حتمًا يومًا ستعودين إليَّ ..

***

"صدقني يا دكتور أشعر به في كل مكان، منذ السنتين تركت حبيبي وسافرت إلى المدينة الكبرى، ووعدته أن أعود، فأنت لا تعلم كم أحبه، وإلى أي مدى أعشق الهواء الذي يتنفسه، تمت خطبتنا وعُقد قراننا قبل سفري، سافرتُ، وبعد الثلاثة أشهر، حدث لي حادث سيارة، رقدتُ في غيبوبة في المستشفى، ولا أحد يعلم من أنا، أخذ حبيبي يراسلني ولكن لم يصله مني أي رد، جاء إلى المدينة الكبيرة وأخذ يبحث عني كالمجنون، إلى أن وجدني بعد أن تتبع قلبه، جلس بجانبي، سنيتن كاملتين يجلس بجانبي يرعاني، يمسك يدي، وصدقني لقد كنتُ أشعر به وأنا في غيبوبتي، لقد كنتُ أسمع دقات قلبه كأني أعيش بداخله، كنتُ أشعر بشفافية غريبة تجعل روحي تحوم في الغرفة، فكنت أراه وعيناي مغمضتان، كنت أرى كل حركة منه، كنت أشعر بتعبه، حاله كان يسوء، كثيرًا ما رأيته يبكي ليالٍ طويلة لا يذوق فيها طعم الزاد، أريد أن أستفيق من غيبوبتي لأطمئن عليه، لأداويه، لأقول له: قد عدتُ يا حبيبي، قد عدتُ إليك، فلنكمل قصتنا، فلنرفع رايتنا، فلنحكِ حكايتنا، مات بجانبي يادكتور، مات من البؤس والتعب، مات من أجلي، مات وهو يمسك يدي، اليوم كنت أمشي في الطريق، عائدة لمنزلي، شعرت به يقف بجانب المنزل، يراني ويسمعني، رأيته كأنه ظلٌ يقف جانبًا، يمد إليَّ يده يقول:، أنا هنا حبيبتي، لقد وجدتك.... وجدت قلادتي، عفوًا يا دكتور، فقد كان حبيبي يلقبني بالقلادة، أكاد أشعر أنه ينتظرني في كل مكان، على باب شقتي، بجانب منزلي، لا أراه ولكني أحسه، ماذا أفعل؟ لا أستطيع العيش بدونه، أتعرف شيئا... أنا لا أحتاج معونتك فأنت لن تقدر على مساعدتي، لأن قلبي ليس معي، سأرفع يدي إلى الله أدعوه أن يجمعني به، وداعًا، من قلب ميت إلى قلب حي"

***

– "حتمًا ستعود"

– "صديقي يجب أن أخبرك.... إنما لن تعود فأنت..... أنت".

– "تكلم، ماذا بي؟، لقد انتظرتها اليوم أمام منزلها... ولم تعرني أي انتباه، بل هربت مني، كأني لم أكن هناك، كأني سراب، كأني ظل!"

– يا صديقي، قد كذبتُ عليك مسبقًا وقلتُ لك إنها حتمًا هجرتك، ولكن يجب أن أخبرك بالحقيقة، إنها بالفعل لم تركَ، فأنت بالفعل ظل، ولكن ظل شبح!!!"

***

طويت خطابها الذي وصلني بالخطأ، فقد كان اسمي مشابهًا لاسم الطبيب المرسل إليه الرسالة، طويت رسالتها ولم أطوِ دموعي، سألت عنها علمت أنها ماتت هي الأخرى بعد إرسالها لهذه الرسالة بأسبوع..

خرجت إلى الشارع أمشي في هذه المدينة الكبيرة، أرى المتحابين والعشاق، أرى الأب يمسك بيد ابنته الصغير التي تمشي بصعوبة، تريد أن تمارس تجربتها الجديدة، رائحة الشواء تأتي من بعيد، أرى البائعين، أنوار المحلات، صخب السيارات، أشعر أن وراء كل إنسان في هذه المسرحية الصاخبة قصة ودرسًا، أشعر أن قيس وليلى لم يموتا، أشعر أن كل زمان فيه قيس وليلى، كل شارع فيه حكاية، وراء كل جدار هناك قصة، أشعر بهما الآن يلتقيان في دنيا أخرى غير التي نعرفها، قد استجاب الله لدعائها وذهبت هي إليه فيما وراء البرزخ، كيف هو اللقاء، لا أعلم، فرت مني دمعة شقت طريقها بين المارة، تجري بغير هدى، ترى ماء النهر من بعيد فتشتاق إليه، فهو منها وهي منه، ولكنها تعيش في جسدي وهو يعيش على الأرض، خائفة مرتعبة من السيارات ولكنها تشق طريقها بين الزحام، إلى أن ارتمت في حضن حبيبها، بالتأكيد لن يزداد ماء النهر بهذه الدمعة الصغيرة، ولكنها قد تزيده عشقًا كجبال عملاقة، وهي جبال لا تُرى..... أشعر أني لا أعيش على أرض بل على مسرح كبير، يديره الله ونحن فيه عرائس تربطنا خيوط تروح وتجيء بنا لأزمنة وأمكنة غريبة، وحتمًا ستتلاقى خيوطنا فنحن على نفس المسرح.

***

"صديقي، بشرى لك، لقد أتت حبيبتك"

نظر إليهاالحبيب وهي تقبل من بعيد وتنظر له مبتسمة، لقد علم الآن أنها تراه، قام من مجلسه ليستقبلها ولأول مرة يبتسم منذ سنتين..... فلقد وجد قلادته..

من أجل قلادتى

(قال لها دامعًا: حبيبتي، لاتتركيني!

قالت له مبتسمة: "أعدك حبيبي أني سأعود، صدقني، إنما بضعة أشهر وسأعود، فأنا امرأتك" ...ثم نظرت إليه بدلال تصاحبها ضحكة طفولية قائلة: "لا، بل قلادتك، نعم اجعلني قلادتك"!

مرت ستة أشهر ولم يسمع فيها شيئًا عن قلادته؛ فذهب إلى المدينة الكبيرة يبحث عنها، وقد ظهر له بصيصٌ من الأمل عندما وصلته أخبار عن مكان إقامتها، ذهب إلى هناك، سأل الجيران عنها، أخبروه أنها تسكن معهم في نفس المنزل ولكنها قلما تأتي، أحيانًا تظهر كل يومين، وأحيانًا تأتي كل أسبوعين!

انتظرها الحبيب، انتظرها وقلبه سعيد يرقص طربًا، فلقد وجد قلادته.

وقف الحبيب وانتبه، فهناك شيء يناديه يقول له:، ها قد حانت اللحظة، ها قد أتت الحبيبة، أخيرًا حبيبتي، أين كنت؟ أين ذهبت؟ لا، لا تجيبي، سأسامحك، فقط أعطيني نظرة من عينيك، أشعريني بدفء القرب منك، أراها تأتي من بعيد، تتراقص نسمات الهواء حولها، أرى الناس وكأنهم أصنام لا حركة فيها، أرى السيارات لا صوت لها، لا أرى في طريق قلادتي، إلا هي، رأتني، نعم رأتني...

ولكن: مهلاً، ما هذه النظرة العَبوس؟ أليست فَرِحةً بلقائي؟ تتركني وتبتعد، تجري... أتبعها، تصعد إلى شقتها، تغلق الباب وراءها، كأني لم أكن.

حبيبتي، لا أعلم لم تركتني؟ لم أفعل شيئًا لك لتفعلي بي هذا! ذهبتُ غير مصدق لما حدث، هِمتُ أيامًا على وجهي، هل يعقل هذا؟ أهذه حبيبتي؟ أهذه امرأتي؟ أهذه قلادتي؟ حدَّثتُ نفسي أنها تشكو من خطب ما... سأذهب الآن وأعود لاحقًا.

سأعود إليكِ يا من ذاق الفؤاد الذل في حبها
سأعود إليكِ يا من ارتدت زمني سوارًا في رسغها
سأعود إليكِ يا من طعنتْ بسيفك قلب حبيبها

عدتُ في ذلك اليوم إلى بيتها وكلي شوق للقائها، لقد شفيتُ من جرحها، علَّها كانت تشكو من مرضها، طرقتُ الباب بقلبي، سمعتُ صوت أقدامها – وما أجمله من صوت – فتحت الباب، ها هي حبيبتي، تضع فرشاة في فمها... ولكن مهلاً، من هذا الذي يقف خلفها؟ فتحت فاهها غير مصدقة أني أمامها وأخبرتني بكل شيء!

لا أعرف، كم مشيتُ من أيام!، كم قطعتُ من مسافات!، كلما أتذكر أنها تقول لي "آسفة"، تتأسف لأنها وجدت غيري حبيبًا وعاشقًا، لعله أغراها بالمال، أو أغراها بالوعود البراقة، ولكنها خانت حبي لها، طعنتْ بسيفها كرامتي، واستباحتْ دمي، لقد حطمتني، تركتني دون كلمة واحدة، وأنا الذي تغيرتُ من أجلها، أنا الذي جعل الحب زادًا، والعشق مأوىً، ألبستني حبيبتي رداء الخيانة واعتذرتْ، ويا ليتها لم تعتذر، كانت ستهون عليَّ ما أقاسية الآن، يا ليتها لم تعتذر، كنت سأظن أنها نادمة، ولكنها اعتذرت، كأن حبي وقلبي وحياتي وعمري قد اختزلتهم في كلمة "آسفة"، تأسفين على ماذا؟، فنار القتل أقل وطئًا من برد الخيانة!

لملمتُ شتات نفسي المحطمة وتركتُ قلبي، لم أجده، لا أعرف أين هو؟، فقد أصبحتُ جسدًا بلا قلب، عدتُ إلى بلدتي الصغيرة، أجرُّ رجليَّ جرًّا، اعتزلتُ الجميع؛ فإن كانت وهي أقرب الناس إليَّ قد غدرت بي، فكيف بالآخرين؟، أتاني صديقي، حاول أن يواسيني، ولكن هيهات!

لا أعرف كم مر عليَّ وأنا في عزلتي، أيام أو شهور؟!

وفي يوم من الأيام، سجدتُ لله كما لم أسجد من قبل، يا الله كم أنا ضعيف بدونك!، كم أنا مستباح الجسد والعاطفة بدونك!، يا الله كيف بقلادتي تفعل بي هذا؟، يا الله أستغيث بك، يا خالقي ومالكي ومولاي، كن معي، ألهمني، أخرجني من ظلمة العزلة إلى نور الحرية.

هذه حتمًا ليست قلادتي، ليست من اختارها الله لي قبل أن أولد أو يولد الكون، يا الله إن لم تكن هي قلادتي، فأين قلادتي؟ قلادتي لن تخونني، لن تبيعني بعرَض من الحياة الدنيا!

جاءني صديقي في هذا اليوم وقد سمع من أهل القرية أني راحل، إنهم يضحكون عليَّ، أنا أعلم، يسخرون من عشقي، أنا أعلم، يستبيحون ذكري على الملأ، سامحهم الله!

– إلى أين أنت ذاهب يا صديقي؟

– سأرحل من هنا، سأبحث عنها!

– ولكنك وجدتها، وقد – سامحني على قول هذا – خانتك.

– ليست هي من أبحث عنها، أنا أبحث عن قلادتي!

–أليست هي قلادتك؟!

– لا، قلادتي لن تخونني، ولو أعطوها كنوز الدنيا، قلادتي تنتظرني، أشعر بها، أشم رائحتها في نسمات الفجر العليلة، أسمع صوتها في ترانيم طيور الصباح، إنها هناك تنتظرني.

– ولكن أين ستبحث عنها؟

– أرض الله واسعة، وهي ستجدني، وأنا سأجدها، هذه تدابير صاحب القلادة.

– من هو؟

–الله!

–أنت مخطئ.

– لا، والله إن اسمها في اللوح المحفوظ، يعرفه كل من في السماوات، لقد خُلِقَتْ لي قبل أن أُخلق لها، ولقد خُلِقتُ لها قبل أن تُخلَق لي.

–أنت حتمًا مجنون!

لم أرد على صديقي، لم أجد من يفهمني إلا أنت يا صديقي البعيد، ولهذا أرسلتُ إليك رسالتي، فإذا كنتَ تقرؤها الآن، فادعُ لي، فإنك تعلم ما أنا مُقدمٌ عليه، الوداع يا صديقي الطيب.)

***

طويتُ رسالته، أعلم أن كل من في بلدته يسخرون منه حتى صديقه المقرب، يلقبونه بالمجنون، يتوقعون عودته في يوم من الأيام، وقد طالت لحيته، وقست عليه غربته، وحولته إلى مخبول يبحث عن سراب، ولكني على النقيض تمامًا، أفهم ما يعنيه صديقي تمام الفهم، وأعلم ماذا سيفعل، إنه لن يلف الأرض لفًّا ينادي علي قلادته المجهولة، إن صديقي سيتغير من أجل قلادته المجهولة، سيعمل في كل شيء وكل مكان، سيبني أسطورته من جديد، سينجح في كل شيء... في عمله وعلاقاته، لن يبحث عنها مكتوف اليدين، بل سيعمل بكل جد ليصبح أنجح مَن في الأرض، ليقابل العديد والعديد، لأنه على يقين أن صاحب القلادة سيسيّر الأمور كما هي مكتوبة، لتتصل الخيوط وتتقابل على المسرح، صديقي قد فهم المسرحية، وفهم من هو ربُّ العرائس والمسرح، لن يجلس صديقي بجانب حائط مظلم يبكي وينادي عليها، بل سيعمل بكل جد وهو على يقين أن من خانته ليست قلادته، وسيأتي الوقت المعلوم كي تلاقيا، ربما في محطة قطار، أو في طريق مظلم، أو في شاطئ يعج بالناس، ولكن في الوقت الذي كتبه ربُّ القلادة وربُّ المسرح، أهل بلدته لم يفهموا هذا، ولكني فهمته، أهل بلدته لن يعلموا هذا، ولكني علمتُه، وأنا على يقين بأن صاحبي سيعود يومًا إلى بلدته وهو مكلل بالنجاح، وسوف يفتحون أفواههم،

كيف تبدل حاله من فشل زريع إلى نجاح ساحق؟ إن خيانة الحبيبة الأولى كانت سببًا في فهمه عن ربه، صديقي سيطوي جبالاً بيديه، ويثني الحديد بأصبعيه، إن صديقي قد أصبح شعلة حب متقدة، محراب عمل واجتهاد وجد وتعب.

***

هي الآن تسير في شوارع طوكيو تتجه للمطار بعد أن أنهت عملها كمراسلة صحفية، تركب الطائرة المتجهة إلى ليننجراد عاصمة صربيا.

***

صديقي الآن (الباحث عن القلادة) يسير في شوارع لندن، يمارس عمله بعد أن افتتح مكتبه الخاص ثم شركته الخاصة، ثم سافر بعيدًا يلف العالم، ينشر رسالة العمل والاجتهاد، ابتسامته لا تفارق وجهه، سافر لإنجلترا ليتم إحدى الصفقات، يتجه الآن لمطار لندن ليعاود سفره إلى مدينة "نيودلهي" لينهي صفقة أخرى.

هو الآن في الطائرة، يعلن قائد الطائرة أن الطائرة أصاب بعض أجزائها عطل فني، ستهبط الطائرة في مطار كازاخستان، يهبط من الطائرة، يمشي في المطار، يجر حقيبته، يصطدم بشخص فتقع منه قلادته التي يحمل بها مفاتيحه!

***

إنها الآن في الطائرة، يعلن قائد الطائرة أن الطائرة حصل فيها عطل فني، وستتوقف في مطار كازاخستان!

***

يعلن مدير المطار استياءه وغضبه وذهوله، طائرتان يحدث لهما عطل فني، ويضطران للهبوط في مطاره وهما غير مدرجان على جدول الهبوط؟! "اللعنة على الأعطال الفنية" قالها بحنق واضح، رد عليه مساعده وهو يراقب الشاشة ليتابع هبوط الطائرتين قائلاً: "إنها حتمًا حكمة الرب".

نظر إليه المدير في عينيه قائلاً: " نعم، أنت على صواب، إنها حكمة الرب".

***

تمشي في المطار، تصطدم بشخص يوقع منها قلادتها التي تضع فيه مفاتيحها.

***

"لقد أوقعتَ قلادتي" قالتها لهذا الشخص، والغريب أنه قال لها نفس الجملة في نفس الوقت، ابتسمت رغمًا عنها، تلاقت عيناهما، ابتدرها قائلاً: " اعتذر لك "، نظرت في عينيه، شعرت بشيء غريب، ولكنها لم تعتد أن تتحدث إلى شخص غريب إلا في حدود عملها، قالت: "لا عليك" تركته وانصرفت، تركها وانصرف، ولكن شيئًا ما قد تغير، حتمًا هناك خيوطٌ تلاقت!

***

لو لم يتأخر سائق التاكسي في الحانة وهو يلتهم إفطاره لأن النادل قد غلبه النعاس قليلاً فنسي طلبه... لو لم يتشاجر النادل مع زوجته في اليوم السابق لما غلبه النعاس... لو لم تضيّع زوجة النادل المال الذي ادخرته لمدة أسبوعين فتطلب من زوجها مالاً غيره لما تشاجرا!

***

هو نفس سائق التاكسي الذي وصل إلى المطار متأخرًا (بسبب النادل) بعد أن غادر كل السائقين محملين بأثمن الغنائم من الركاب، فلم يتبقَّ إلا هو السائق الوحيد أمام المطار.

***

لو لم تتأخر صاحبة القلادة في استلام حقائبها، لكانت وجدت العديد من سيارات الأجرة، ولم يكن هذا التاكسي الوحيد الواقف أمام المطار لتشارك شخصًا آخر في ركوبه.

***

لو لم تتأخر إجراءات خروج صاحب القلادة من المطار (ليتجه إلى الفندق الذي سيمكث به انتظارًا ليوم غد، حتى تتم صيانة طائرته المتجه إلى نيودلهي)، لوجد العديد من سيارات الأجرة ولم يضطر أن يتشارك مع إحدى الركاب في التاكسي الأخير الواقف أمام المطار.

***

"اعذريني يا سيدتي، سأضطر إلى أن أصطحبه معنا، فمن الواضح أنه لا يوجد سيارات أجرة غيري"

ردت بإنجليزية سليمة: "لا عليك، دعه يركب"

يقول وهو يدلف إلى السيارة: "السلام عليكم، أعتذر يا سيدتي، ولكني مضطر .... "

يقطع كلامه وهو ينظر إليها غير مصدق أنها نفس المرأة التي اصطدم بها في المطار وأوقعت قلادته، تنظر إليه غير مصدقة، يقول لها: " ياللصدف! أقصد القدر"

ابتسمت قائلة: "وعليكم السلام"!

تعجب صاحب القلادة قائلاً:

- "أتعرفين العربية"؟
-"قليلا"!
-"غريب، مع أنك ذات ملامح أوروبية"!
-"نعم فأنا، من البوسنة".

مرت الدقائق وكأنها ساعات، دقَّ القلب مرة أخرى، ولكن هذه المرة دق في الميعاد الذي اختاره رب القلادة، تلاقت جميع الخيوط، أدى الممثلون على المسرح أدوارهم، (حبيبة صديقي السابقة، حبيبها الجديد الذي أغراها بالمال، أهل القرية الذين سخروا منه ففجَّروا فيه هذه الطاقات الإبداعية، كل من ساعده لينجح ويسافر عبر العالم، صاحب الصفقة في إنجلترا، صاحب الصفقة في نيودلهي، الوكالة الإخبارية التي تعمل فيها صاحبة القلادة، الطائرة ذات العطل، قائد الطائرة، مدير المطار، عامل الحقائب، موظف المطار، زوجة النادل، النادل نفسه، سائق التاكسي)...

"أرسل إليك صديقي صاحب القلادة من صديقك الذي وثقت به وتوقعت أنه سيفهمك جيدًا، أبارك لك زيجتك، أعلم أني كنتُ غير قادر على الحضور شخصيًّا، فأنا كما تعلم أعمل خارج البلاد، وأعلم أنك عدتَ لبلدتك أنت وعروسك، أتممتَ الزواج في مسجد البلدة الكبير، وكأني أرى أهل بلدتك ذاهلين وهم يرونك في هذا النجاح ومعك زوجتك، ولكني على يقين أنهم هنئوك وأنهم فرحوا كما لم يفرحوا من قبل.

صديقي: مباركٌ لك قلادتك، فقد وجدتَها حقًّا، عذرًا، فقد وجدتْك حقًّا... معذرة، لقد حدث ما هو مقدر لكما، فهنيئًا لك الاختيار من رب الأقدار، الآن أعلم أن القلادة لا تعني إنسانًا ولا كائنًا مهما كان، إنما تعني المحتوم، هناك من الناس من يبحث عن قلادته طوال عمره، ويجدها، ولكنها قلادة في النهاية مليئة بمفاتيح السيارة الفارهة والمنزل الفاخر، ولكن صديقي كان يبحث عن قلادة أخرى مليئة بمفاتيح الحب والسعادة، رُبَّ حبٍّ أثمن ألف مرة من ألف سيارة ومنزل فاخر... فهنيئًا لك يا صديقي أن وجدتَ قلادتك"!

دموع الزمن

الإنسان: "عندما رأيتُ النجوم مددتُ يدي لعلى ألمسها ، يا لها من مصابيح براقة تجبر الرائي أن يتصلب ، أن يتعثر، يا ترى ماذا هناك؟ ، أغبطك أيتها النجوم، يا ليتني كنت مثلك، نجم في السماء"

النجم: "عندما رأيت الإنسان ينظر إليَّ بعينين ملأهما الهواكأني عشيقته قلت يا لك من إنسان غرور، تنظر لي أنا النجم المصمت ولا تنظر إلى من خلقني، طالما أغبطك أيها الإنسان أن عندك الاختيار بين العبادة والعناد، لستَ مثلي مسيرًا، كنت أتمنى أن أختار حتى أختار عبادة ربي وخالقي، لأقول إني اخترتك أنت ربي عن كل الدنيا، ما هذه الدموع التي أزرفها؟، نعم أعرف أزرفها على حال هذا الإنسان فهو لا يعرف، لكن عزائي الوحيد أني سأكون شاهدًا عليك على عينيك على أذنيك، أنا وغيري من المصمتات، أفق أيها الإنسان، سأزرف هذه الدموع لعلها تلامسك.... فتعرف الرسالة.... وتتبع الإشارة"

الإنسان: " ما هذا الماء الذي أصابني؟، لعله مطر أو طير ما، سأمضي من هذا المكان لأنام وأعود غدًا لأرى حبيبتي مرة أخرى النجوم"

النجم: "انتظر لا تذهب، ليست مطرًا يا إنسان لسنا بالشتاء، ولا طير يا إنسان فلكنت رأيته ، إنها دموعي"

***

في المساء التالي عاد الإنسان ليقف في نفس المكان يتأمل الجماد ويغبطه ولا يتأمل رب الجماد، وفي نفس المساء وفي نفس السماء عاد النجم ليظهر في نفس المكان ينظر لنفس الإنسان، ويصرخ بنفس الكلام ويبكي، يمسح الإنسان الماء الهابط من السماء على وجهه وهو لا يفهم ويغادر المكان.

مرت الليالي وصحبتها السنون واللقاء لا يزال مستمرًا ودموع رسالة النجم لا تتوقف، وفي يوم من الأيام جاء نفس الإنسان إلى نفس المكان ينظر لنفس السماء لذلك النجم المصمت، ولكن الغريب أن شيئًا لم يتغير لا في الأرض ولا في السماء ولا في النجم، الشئ الوحيد الذي تغير شكله هو الإنسان، شعر أبيض كلون النجوم، وجه مليء بالتجاعيد، عظام مكومة على بعضها البعض قد استنفر الزمن مخزونها.

وفي يوم من الأيام لم يأتِ الإنسان، لم يعد له وجود على الأرض، وفي هذا اليوم توقف النجم عن البكاء.

دكان الحاجَّة رؤية

متجرُ السِّتِّ رؤية ذو مساحةٍ صغيرة، يحتوي على عدد كبير من الأرفُف الخشبية القديمة ذات إطار نحاسيّ، وتتراصُّ عليها عددٌ من قوارير الزَّيت وأكياس السُّكَّر وعُلَب الشاي وغيرها من صنوف البقالة، لدى السيدة رؤية صنفان فقط من كلِّ نوع لا أكثر؛ فنوعا الزيت هما نفسُهما اللذان يتواجدان في المتجر منذ سنواتٍ، لا يتغيران، المتجرُ الصغيرُ يضيئُه مصباحٌ معلَّقٌ في سقف المكان يشعُّ نورُه الأصفرُ ويتراقصُ بفعل المروحة المعَلَّقة التي تعلوه، والتي كلما دارَت ألقَتْ بظلالٍ صفراءَ متراقِصَةٍ على الحوائط، ولصوتها العالي فحيحٌ هادئٌ يبعثُ على الصَّمْتِ. يسدُّ مدخلَ المكان مِنَصَّةٌ أسمنتية يعلوها ميزانٌ قديمٌ من النوع ذي الكفتيْن والأثقال الحديدية بوزن الكيلو وأجزائه والخمسة والعَشرة، ويوجد بجانبه دفترٌ كبيرٌ وقلمٌ من الرصاص. وقبل أنْ يأتي اللَّوحُ الخشبيُّ الذي يعلو ويهبط سامحًا أو مانعًا للدخول إلى ومن المتجر، يوجد أربعُ علب بلاستيكية تحوي كلُّ واحدة منها على صِنْفٍ من أنواع الحلوياتِ التي يحبُّها الأطفالُ (ملَبِّس ولبان وتُوفي ونوجة).

المتجر عمرُه يتعدى السبعين عامًا، كان لوالدها الذي بنى هذا البيت ذا الطابق الواحد وأنجبها فشبَّتْ في هذا المكان تنمو عامًا بعد الآخر، لم يشهد المتجر أيَّ تجديد أو تغيير طيلة تلك السنواتِ إلا مرتيْن؛ مرة عندما قرَّر أبوها أنْ يعيد دهان الحوائط، ومرة أخرى فعلتها هي عندما طلبَتْ من نجّار المنطقة أنْ يصنع لها أرفُفًا خشبيةً تحمل البضاعة بدلًا من المصاطب الخشبية الأرضية التي كان يستعملها أبوها، وقد كان ذاك التغيير الضخم منذ خمس وأربعين عامًا.

تتذكر السِّتُّ رؤية الأيامَ التي قضتْها مع أبيها، وهي صغيرة تكبرُ عامًا بعد الآخر عندها كان المتجر مُكدَّسًا بالبضاعة؛ فقد كان المنفذَ الوحيدَ لتجارة المواد الغذائية لأهل الشارع، كانت ترصُّ معه البضاعةَ وتفتحُ أجولَةَ البقولياتِ وتبحثُ عن الحشراتِ والحصى وترميها، تنظر الآنَ السِّتُّ رؤية للرفوف التي تكاد تفرغ من أمتعتها، وتتذكر الماضي الجميل، كانت الصبيَّة تحفظُ المكانَ شبرًا شبرًا، حتى أنها في الظلام كانت تتبيَّنُ موضعَ كلِّ صِنفٍ وكيف تعبُر من فوقه أو من خلاله، كان يحلو لها دائمًا أنْ تقفز من فوق جوال الطحين وهي تستخدم حبلًا تمرّره من أسفل قدميْها ليدور مارًّا من فوق رأسها وهي تدندن فتثير بقفزتها حبيباتِ الطحين الراقدة بجانب الجوال فينهرها أبوها ويطلب منها أنْ تلعب بالخارج، وحين تجده مشغولًا مع أحد الزبائن أو تجار التجزئة تعود لتصنع فعلتَها فينظر لها شذرًا فتبتسم في خجل فيبتسم من دوره ويتركها تفعل ما تشاء.

تتذكره بجلبابه القطنيّ الأبيض وغطاء رأسه "الطاقية" الأبيض ذي الثقوب والشال المخمليّ الذي كان يرتديه عندما ينادي المنادي للصلاة، لم يغلق أبوها المتجر أبدًا حتى عندما كان يذهب للمسجد، بل ينادي عليها لتأتي من داخل البيت ويطلب منها أنْ تحرس المتجر، كان يُشعِرُها بأهمية ذلك وأنها حارسُ المكان الأزليُّ، وأنَّ تلك المهمة لن يستطيع غيرُها القيام بها على أكمل وجه، كانت تغتبط

لذلك وعندما يغادر أبوها مُنزِلًا خلفَه اللوحَ الخشبيَّ تجلس على الكرسيّ الأبنوس العالي وتُمسِكُ بعصا غليظة – كان أبوها يستخدمُها للبحث عن الفئران – وتعقِدُ حاجبيْها وعندما يحضر شخص ما ويسأل عن شيء تخبره بعصبية مزيفة "اذهب الآنَ؛ فأبي يصلي وأنا أحرسُ المكانَ نيابةً عنه" فيبتسم ويجلس على الدِّكَّة المجاوِرَة للباب الخشبيّ – الذي يُغلَق في الليل على مصراعيْه – وعندما يأتي الأبُ تفكُّ حاجبيْها وتضع العصا في مكانها وتذهب للعب لعبة "الأولى" مع صاحباتها فيضحك أبوها بدوره.

شبَّت الصغيرة حتى تزوجَت، ماتت أمُّها وبقي أبوها وحيدًا، كانت تسكُن مع زوجها في الشارع نفسه وكان تاجرًا للأحذية، انتظرا خمس سنواتٍ حتى رزقهم الله بمولودها الأول ثم بعدها بعامَيْن رُزِقا بالثاني، خَسِر زوجُها تجارتَه كلَّها واضطرا للانتقال إلى بيت أبيها؛ فعرض عليه ذلك الأخير أنْ يساعده في تجارته هو وابنته لأنَّ الهرم قد أصابه وكان يُغلِق متجرَه معظم ساعاتِ النهار، مع مرور الأيام رقد الأبُ على فراش المرض وتولَّت ابنتُه رعايتَه والاهتمام بالعمل وبالأولاد لأنَّ زوجها كان يسافر كثيرًا يحاول استعادة تجارته، ثم أصبح يغيب عن البيت بالشهور، إلى أنْ أرسلَ لها في يوم رسالةً يُخبِرُها أنه قد استقرَّ في "ليبيا" وسيرسل لها قريبًا كي تأتي إليه ولم يعلِمها عنوانه، أضحَت رؤية في حيرة من أمرها، كيف تترك أباها! وتأخذ أطفالها وتسافر بعيدًا عن المكان الذي ترعرعَت فيه!، بالطبع قرَرَتْ ألَّا تفعل كما أنها تعرِف أنَّ زوجها لا يحبُّها هي والأولاد وأنه سليطُ اللسان يعيشُ من أجل نزواته ويكرَه تحمُّل المسؤولية.

ومرَّت الأيام وقد ارتاحَت من حيرتها؛ فهو لم يرسل لها مرة أخرى وانقطعَت أخبارُه تمامًا كأنه تبخَّر من حياتها، شبَّ الابنُ من غير أبٍ يهديه ويقودُه بين دروب الحياة أمَّا الابنة فكانت دائمًا صامتة، لا تتكلم كثيرًا كأنها تعيشُ في عالمٍ آخر لا يجرؤ أحدٌ على الدخول اليه، عندما أصبح الابنُ في ريعان الشباب زاد عقوقُه لأمِّه وسلَكَ مسلَكَ السُّوء في حياته، أدمن المخدراتِ وصادق أصدقاء السُّوء وكلّ يوم يزداد تطاوُله على أخته الصَّامتة التي تبكي في صمتٍ واضعةً يديْها على رأسها، وفي يومٍ أخبرَ طلب من أمِّه المالَ فرفضَت ليضربها فطردتْه ولعنتْه ليخرج من حياتها هو الآخر ولم يبقَ لها إلَّا البنت التي تزوجَت بعد ذلك، فبرغم حياة الفاقة واليُتم الأبويّ فقد أنعمَ الله عليها بمسحة من الجَمال، وكأنها كانت تنتظر تلك اللحظةَ لتخرج من تلك الحياة البسيطة البائسة وقد انتقلَتْ بعد زواجها إلى محافظة أخرى بعيدًا عن الأمِّ الوحيدة تزورها بين حين وآخر حتى كادت الزيارة أنْ تصبح شبه سنوية.

البِتُّ رؤية تجلس الآن في متجرها تمسك بمصحفِها وتقرأ فيه كعادتها كلَّ صباح، ومروحةُ السَّقْف تشاكسها فيقلب هواؤها الصفحاتِ رغمًا عنها فتخرج لتجلس على الدِّكَّة الخشبية المجاورة لباب المتجر، كانت تقرأ بصوت شجيٍّ تناجي ربَّها بكلماتٍ تؤنس وحدتها وتشدُّ أزرَها، جاءها صوتُ شخصيْن يتكلمان يجلسان على مقربة منها وهي تعرفهما جيدًا، فالبيتُ البسيطُ الذي جاوَر بيت أبيها والذي يُمسِكُ ناصيةَ الشارع قد هُدِمَ وبُنِيَ مكانه برجٌ عملاقٌ، البرجُ يطلُّ على الشارع الرئيسيّ وجانبه الآخر يقع داخلَ الشارع ويلتصق ببيتها القديم ذي الطابق الواحد، لا تستطيع أنْ تميز له لونًا بعد أنْ طمسَت ألوانَه عذاباتُ السنين، إذا وقفْتَ أمام البناءين تنظر يُسرةً ثم تعود لتنظر يُمنةً فستشعر أنك تنتقلُ بين الأزمان.

في الطابق الأرضيّ للبرج يقع متجرٌ كبيرٌ "سوبر ماركت" قد افتُتِح منذ عام واحد يعود لسلسلة متاجر كبيرة لديها أفرعٌ في أماكن كثيرة، كأنه حوتٌ ضخم وعلى جانبه سمكة صغيرة، متجر الحاجَّة رؤية كان فارغًا من البضاعة؛ فالطلبُ على بضاعتها ليس بالكبير، وهي راضيةٌ بما تتحصل عليه ويكفيها قوتًا ليومها. جغرافية الشارع قد تغيرَتْ تمامًا على مرِّ السنين؛ فأكثر البيوت القديمة باعها أصحابُها فهُدِمَت وبُنِيَت مكانها عمائر شاهقة، زبائن السِّتِّ رؤية معروفون ومعدودون فهنَّ السيدات العجائز اللواتي بقيْن في الشارع على حالهنَّ يأتينَ لها بين الحين والآخر يشترين زيتًا أو أرزًا، الأطفال الصغار ما عادوا يأتون ليشتروا الحلوى التي في العُلب البلاستكية؛ فالمتجرُ الجديد على قمَّة الشارع قد ملك أحلام الصغار وأمانيهم؛ فيخرج الصغيرُ مع أبيه من هناك مُحمَّلًا بكلِّ أصناف الشيكولاتة والحلوياتِ، ولكنها استمرَّتْ في إحضار تلك السكاكر وكانت توزعها عليهم بالمجان، كان المتجر يعجُّ بالأطفال في العيديْن (الفطر والأضحى) عندما كانت تستقدم لهم المسدساتِ الصوتيةَ والألعاب البلاستكية الرخيصة، فيأخذ الأطفال (العيدية) التي يتحصلون عليها من ذويهم ويشيعوا في متجرها فرحًا ولهوا وشراء، ومَن يشتري المسدس يعود بعدها ليأتي بالطلقاتِ من جديد.

أخذها صوتُ الرجليْن من شرودها، وقد سرحَتْ بخيالها في غياباتِ الماضي وهي تردِّد الآياتِ بلا تَدَبُّر حقيقيٍّ فاستغفرَت اللهَ، وعندما همَّت بأنْ تكمل أتاها صوتُ ضجيجهما العالي، كان مديرُ المتجر الشهير يتناقش مع مساعده وهما يدخنان خارجَ المكان مرتديْن زيَّهما الرسميَّ الذي يظهَر عليه شعارُ المتجر ويتحدثان عن أنظمة "بوينت أوف سيل" وكيف توفِّر جهد "الكاشيرز" وأنَّ "البار كود" يضمن الحماية من السرقة، لم تتمالك نفسَها من الضحك عندما سمعَتْ كلمة "البار كود" فنظروا اليها شزرًا، تنهدت ووضعَتْ مصحفَها جانبًا وأخذَتْ تنظر في الفراغ تفكِّر ما هو "البار كود" فالتجارة في نظرِها أسهلُ من ذلك، يأتي الزبون يطلب منها الصنفَ فتتجه إلى الرفِّ المخصص تُحْضِره له فينقدَها الثمنَ، تذكرَت ما حدث منذ شهريْن عندما زارَها محامي رجل الأعمال صاحب سلسلة المتاجر للمرة الثانية وقام بتهديدها، في المرة الأولى التي أتى فيها طلب منها أنْ تتركَ البيتَ مقابل ثمنٍ سخيٍّ تعيش به الباقي من عمرها منعَّمةً، كما أنها ستحصل على شقة صغيرة في أحد أبراج البيك الكبير، وعندما سألتْ عن السبب أخبرها أنهم يريدون هدْمَ البيت والدكان، وعلى قطعة الأرض الصغيرة التي يحتلُّها البيتُ سيقومون بتوسعة متجرهم؛ نظرًا لكثرة الإقبال وفي الطابق الثاني سيفتتحون مطعمًا، قلَّبَت الأمرَ في عقلها لثوانٍ ورفضَتْ رفضًا قاطعًا، وفي المرة الثانية هددَها فطردتْه وهي السِّتُّ الطيبة التي لم تفعل ذلك مِن قبل، لماذا تفعل وتترك ملاذَها، ما اعتادَتْ عليه وما شبَّتْ عليه، وما قيمة المال أمام ذكرياتِ الماضي!

هنا كانت تلهو، وهنا كانت تقفز فوق جوال الطحين والآن هي تستمع بعملِها عندما يأتيها جوالُ الأرز من المزارعين بعد الحصاد فتسهرَ في المتجر تقوم بتنقيتِه من "السُّوس" والحصى الصغير وتضعه في أكياسٍ كلٌّ واحد فيهم به كيلو من الأرز المنقَّى، وعندما يأتيها من مصنع الصابون القديم المتواجد خلفَ شريط القطار برميلُ الصابون السائل، تُمسِك بدورق خصَّصَتْه لذلك الأمر تعبِّئ به أكياسًا وزنُها نصف كيلو، تجهز بضاعتها كلَّ شهر واضعةً إيَّاها على الأرفُف وتترك أمر الشراء وأمر الزبائن على الله، مَنْ سيعوِّضُها عن جلستها المسائية كلَّ يوم مع السِّتِّ "أمّ وليد" على الدكَّة الخشبية التي سمياها "المصطبة" يحتسيان الشاي سويًّا وعلى صوت الرشفاتِ تتذكران صفحاتٍ من الماضي لم تندمل، وتعيدان القصص والحكايات نفسها على مسامع بعضهما البعض ولا تملان، كانتا صبيتيْن صغيرتيْن شبَّتَا

ولعِبَا معًا، وعندما أهرمَهُما الزمن جلستا على المصطبة تتسامران بلا مللٍ ولا كللٍ كأنَّ صوت السيارات والزبائن المكدسين كحباتِ العنب على باب المتجر الكبير لا يشكلون لهما فرقًا، هي تعلم أنَّ "أمّ وليد" ماتت منذ ستة أشهر ولكنها لا تزال تجلس على الدكة تناغيها وتتحدث معها وتزعُم أنَّ روحها حاضرةٌ ولا يصدِّقها أحدٌ، دمعَت عيناها في هذه اللحظة وهى تتذكر صديقَتَها وأنيسةَ سنواتِ العُمْر المخبوءة.

"ربنا يرحمها، كانت سِتّ طيبة!"

مسحَت دموعَها بطرف جلبابها الأسود، وأكمَلَت قراءةَ القرآن.

الدكتورة سناء، دكتورة الاقتصاد المتقاعدة، وزوجة الدكتور حسنين طبيب القلب المشهور دائمًا ما تعوَّدَت أنْ تتسوق من المتجر الكبير فهو يقع على الناحية الأخرى من الشارع الرئيسيّ، دائمًا تقول لزوجها إنَّ المتجر به عيبان خطيران، الأول أنهما يسكنان في الجانب الراقي من المنطقة وأنَّ المتجر يتوسط – في الناحية الأخرى من الطريق الرئيسيّ – منازل قديمة ومنطقة تبدو كالمناطق العشوائية

"والعيب الثاني؟" يسأل الدكتور

"ينقصه قسمٌ للأسماك الطازجة، لديهم جزار وقسم للخضار والفاكهة وباقي المتجر"

"لا تنسَيْ أنَّ المكان ضيق بعضَ الشيء"

"أتعلم أنهم يحاولون توسعته؟"

"خبرٌ سعيدٌ"

"ولكنَّ أصحابَ ذلك البيت المتواضع المجاور لهم يرفضون"

بدا على زوجها التململُ من الحديث؛ فأطفأ نورَ المصباح المجاور له ونام على جنبِه وصمَت كي يوحي لها أنه قد بدأ يخلُد للنوم

"أتعلم، سأذهب غدًا كي أتحدث معهم وأحاول إقناعهم بالعدول عن الرفض!"

"امم"... تصنَّع أنه في غفوة النُّعاس

"وخاصةً أنهم عرَضوا عليهم مبلغًا كبيرًا من المال لا يحلم مثلُهم به"

سكتَ الرجلُ تمامًا وبالفعل كان قد خلَد للنوم. في اليوم التالي تمادَت الدكتورة سناء بعد أنْ أنهَتْ تسوُّقها من المتجر؛ وكانت سعيدةً لأنها تحصَّلت أخيرًا على كريم الوجه الفرنسيّ الذي طالما سألَت خدمةَ العملاء عنه.

"الخدمة هنا فايف ستارز" حدثَتْ نفسَها

بعد أنْ وضعَتْ أشياءَها في حقيبة السيارة، دخلَت الشارع الصغير لتجد على يسارها متجرًا صغيرًا ومُظلِمًا مفتوحًا على مصراعيْه، هذه هي المرة الأولى التي تدرك وجودَه في بطن المنزل المتواضع المجاور للمتجر الشهير، قامَت السِّتُّ رؤية من مكانها وألقَت عليها التحية، لم ترَها الدكتورة سناء في بادئ الأمر نتيجة للظلام الذي يلفُّ المكانَ بالرغم من أنها ساعة الظهيرة، تعمَّدَت أنْ تطلب شيئًا كي تفتح مجالًا للحديث، تحرَّكَت السِّت العجوز وأحضرَت كرسيًّا وقفَتْ عليه ثم مدَّتْ يدَها أعلى الرفِّ لتحضر قنينةً من الزّيت كما طلبَت السيدةُ الذي يبدو عليها الثراءُ، والتي ضاقت من حركة العجوز البطيئة، واستغربت في نفسها: ما بالُ هؤلاء الناس الذين عفا عليهم الزمنُ لا يأبهون ولا يكترثون للوقت؟، وضعَت القنينةَ على المصطبة الأسمنتية وأحضرَت منشفةً ومسحَت الترابَ المتكوِّم على الزجاجة فتأفَّفَت الدكتورة واعتذرَتْ عن قبوله؛ فنوعُ الزيت غير المعروف ومنظر الأتربة التي على القنينة ورائحة المحل العَطِنة غير المعطرة جعلها تشعر برغبة في القيء.

"سيدتي، أرجوكِ أنْ توافقي على ترك المكان؛ المبلغ الذي عرضوه عليك سخيٌّ جدًّا، ستعيشين أيامكِ الباقية في هناء"

تمكنَت السِّتُّ رؤية دائمًا ألَّا ترسمَ لما يعتمِلُ في جوفها تعبيراتٍ على وجهها، فلا يعرف مَن يحادثها فيمَ تفكر، على وجهها ارتسمَت نظرةُ جمود، أمَّا بداخلها فكانت تبكي وتتعجَّب من أمر هؤلاء الناس، ولماذا يحشُرون أنوفَهم في حياتها، وما بال هذا الزمن الذي أصبح الكلُّ يتدخل فيما لا يعينه، ولماذا يريد الجميعُ هدمَ سنواتِ حياتها وماضٍ استغرق سبعين سنةً كي يكتمل بناؤه.

"وما دخلِكِ أنتِ؟"

"لا أستطيع شراءَ الأسماك، وهذا ما ينقص المتجرَ؛ فمساحتُه ليسَت كافيةً لتلبية متطلباتنا، وحانوتكِ الصَّغير كما يبدو عليه وعلى بضاعته أصبح غير ذي فائدة؛ فالترابُ والكلخُ يملأه"

عادَت السِّتُّ لتجلس على مقعدها الأبنوس بنفس نظرة الجمود التي استطاعَتْ سنواتٌ من قسوة زوجها وأولادها أنْ ترسمها على الوجه المليء بالتجاعيد وهي تقول "لا يوجد من هو أكلخُ منكِ، اذهبي إلى حال سبيلكِ أرجوكِ واترُكيني لحالي!"

نظرَت الدكتورة سناء بتعال وقالتْ وهي تنظر باشمئزاز يطالُ من وجهها البغيض "عجوز خرفاء! سيهدمونَه على رأسكِ بإذْن الله"

بكَت السِّتُّ رؤية بمجرَّد أنْ غادرَتْ تلك المرأةُ الجوفاء التي لم تحترم حتى فارقَ السنِّ بينهما، وتمنَّت لو أنَّ واحدًا من ولديْها معها الآنَ.

مرَّ أسبوعٌ آخر استمرَّت فيه التهديداتُ مِن قِبَل محامي رجل الأعمال، أرسلَت الأمُّ لابنتِها تخبرها بأنها تريد أنْ تسافرَ لها وتقضي معها أسبوعًا لأنها تعبة بعض الشيء، ردَّت الابنةُ تُخبرها بأنها تنتظرها على أحرِّ مِن الجَمْر وخاصةً إنها عادَت لعملِها بعد انقضاء فترة إجازة الرضاعة، وأنها تحتاج إلى مَن يجلس مع الرضيعة أسبوعًا حتى تجد من يهتم بها!، سافرَت الأمُّ ومكثَت أسبوعًا شعرَت فيه بغربةٍ شديدةٍ واشتاقَتْ لبيتها ودكانِ ذكرياتها؛ فعادَت... ويا ليتَها ما فعلَتْ!

محامي رجل الأعمال أخبر سيدَه برفض صاحبة المكان للأمر، رفع الرجل سماعة الهاتف وتكلَّم مع رئيس الحيِّ ليستصدرَ قرارًا بهدم البيت المخالف، والذي أعدُّوا له تقريرًا مزورًا بأنه آيل للسقوط، حضر عمالُ الهدم ولما لم يجدوا أحدًا في البيت اقتحموه هو والمتجر وأخرجوا الأشياءَ البسيطة ووضعُوها في عرْض الشارع، البيتُ كان فيه سرير حديديٌّ و"طبلية" و"كنبة" ودولاب ملابس وموقد للغاز، لا يوجد تلفاز ولا حتى ثلاجة تبريد مثله مثل المتجر فلا يوجد أيُّ أجهزة فيه غير موقد صغير لإعداد أكواب الشاي وبضاعة لم تملأ إلَّا صندوقيْن من الكرتون من الحجم الكبير تبرَّع بهما مديرُ المتجر الشهير.

صوتُ المعاول والحفَّار والونْش وأصوات الهدم لم تشكل فرقًا كبيرًا لمن يسير في الشارع، الجميع يقفُ والسعادة الحقيقية ترتسمُ على الأوجُه، مدير المتجر ومساعده والعاملون الذين خرجوا ليروا عصرًا جديدًا لمتجرهم، وأيضًا زبائن المتجر الشهير ومحامي الرجل المشهور، الوحيدة التي كانت تبكي وترفع يدَها بالدعاء على مَن يهدم بيت السَّيِّدة الغائبة هي جارتُها العجوز "أمُّ السَّيد" ولكنَّ صوت الونْش طغى على صوت دعائها وأصوات معاول الهدم تداخلَتْ مع اللعناتِ التي أطلقتْها على الجميع وفي مقدمتِهم صاحبُ المتجر، اكتمل الهدمُ وعندها ظهرَت الحاجَّة رؤية التي مدَّت يدَها في الخواء الذي كان يومًا ما مقرًّا لمستنبت كلِّ ضحكة وكلِّ زفرة وكلِّ دمعة،

صورة قفْزِها من فوق جوال الطحين تراءَت لها ومنظرُ أبيها وهو يعتمرُ شالَه وقبعته البيضاء وهو ذاهبٌ للصلاة ملقيًا عليها ابتسامته الوقورة، كان آخر ما رأته قبل أنْ تقع جثة هامدة على أشيائها المعبَّأة في كراتين.

من فورِه، خرج رجالُ الأعمال على عجل، فرئيسُ الحيِّ هاتفَه أنَّ رجالَ الشرطة يحيطون المكان بعد أنْ خرج شيوخ وعجائز الشارع يشكلون ثورة صغيرة ويريدون إحراق المتجر، جثة العجوز لا تزال في مكانها بعد أنْ رفضَت سيارة الإسعاف حملَها وهي جثة هامدة، على شخص ما أنْ يأتي ويحمل الجثة ليدفنَها، الشيوخ يسدُّون الشارع والسيداتُ يبكين وهناك مَن يهدِّد بفضح الأمر؛ فالبيتُ قد هُدِمَ بالرِّشوة ولم يكن به عيبٌ.

"أسرِع يا عم سعيد، فرئيس الحيِّ ينتظرني هو والمأمور هناك في مكان الحادث"

"لماذا هدمتُم بيتها؟"

لم يعتَد رجل الأعمال من سائقه المسنِّ أنْ يناقشه أو حتى يحدِّثه في أيِّ أمر

"أنت تعرف يا عمّ سعيد أولئك الرعاع، وفي النهاية ماتت الخرفاء ولم تستمتع بمالها"

"هؤلاء الرعاع، وهذه السيدة هي أمي وأمُّكَ يا سعادة البيك المهم!"

"هل جُنِنْتَ يا حيوان، كيف تتحدث معي هكذا يا كلب؟!، اليوم هو آخر عمل يوم لك معي، بعد أنْ ننتهي عُدْ لمقر الشركة وخُذ راتبَك؛ كي لا أرى وجهَك القميء مرة أخرى"

"لا يهمني!"

خلع السائقُ المسنّ قبعتَه وزاد من سرعة السيارة، خاف الرجل الثريُّ أنْ يُقدِمَ على فعل أحمق فآثر الصمت، فمثلُه من البشَر حياتُهم بائسة لن تشكل فرقًا أمَا مَن هم في ثرائه وأهميته فحياته مُهمَّة له ولمن حوله أو هكذا كان يظنُّ، تشاغل بالعبثِ في تليفونه المحمول؛ حتى لا يلتقي بعينيْ عمّ سعيد الناريتيْن في المرآة.

وصلَت السيارةُ فتنهَّد الثريُّ في ارتياح، ولأنه انشغل بالتليفون لم يرَ الطريق جيدًا وبمجرَّد نزوله دلَف إلى الشارع الذي بدأ يُدرِك أنه يعرفه جيدًا وأنه ترِبَ هنا كما تعرَّف على جثة أمِّه الملقاة أمامه، وكأنَّ قسوة قلبه لم تُبقِ ذرَّةَ حُبٍّ ولا رحمة في قلبه وما أصابه لم يكن الندم في أنه لم يستطع قتلها من قبل، وها هو يعود من جديد ليفعل دون أنْ يعرف أنَّ وصاحبة النزاع كانت أمَّه وأنَّ البيت الذي هدمَه بمكالمة تليفونية كان بيتَه الذي نشأ فيه عاقًّا، وقد أدرك الآن كلمة سعيد وهو يقول له "إنَّ أولئك الرعاعَ هم أمي وأمُّكَ"، جُلُّ ما أصابه كان الخوف ورغبته في الهروب وخاصةً عندما رأى تلك العينيْن الناريتيْن اللتيْن تنظران إليه في كُرهٍ، عينيْ السِّتِّ "أمّ السَّيد" التي بدا أنها قد تعرفَتْ عليه، خاف الثَّريُّ وهرب من مكانه وبقيَتْ العينان تطاردانه ما بقي له مِن عُمْره.

الظل

"هل تحدثتَ يومًا إلى ظلك؟, ذلك الكائن الفريد من نوعه الذي يتبعك أينما كنتَ كأنه خادم مطيع لك, ولكنه خادم لا تجد له صوتًا ولا ملامح؟ مجرد خيال جامح يستطيل إذا أراد، ويختفي إذا شاء، وإذا جنح الليل يلملم شتات نفسه ليتدثر فى ظل أنوار الليل ويتوارى فى جنح الظلام كأنه لم يكن!، هل قررتَ يومًا الاختباء منه حتى ينسدل الليل بستائره الداكنة، فتنطلق بدونه حرًّا طليقًا كأن الكون قد غدا لك؟!

استيقظتُ فى ذلك اليوم مبكرًا على غير عادتى، وقررتُ أن أغادر مسكني بلا هدى، استوقفت سيارة أجرة، تلك التى أهوى ركوبها – ليس لأنها مريحة ولا سريعة– ولكن لأنها تشعرك بأنها مثل ذلك الظل, تسير معك أينما تريد، وتختفي عندما تريد، إلا أنها فى النهاية تأخذ منك ثمن طاعتها لك، بعكس الظل فهو لا يأخذ شيئًا منك فى المقابل.

ذهبتُ إلى هذا المكان الخالي الذي طالما أحببته، أستمع فيه إلى صوت الهواء ورنين الرياح، وأرى هذه الكثبان الرملية فى الصحراء المتسعة، أرى انعكاس الشمس فى كل حبة من الرمال، كأن كل حبة فيها تحكي قصة الكون، التفتُّ لأتكلم معه، ذلك الرفيق الصامت، ولكنى لم أجده، التفتُّ من جديد أبحث عنه ولا أجده، تكاد عيناي أن تخرجا من مقلتيهما، يكاد قلبي أن يتوقف من الخوف، أين أنت يا صديقي؟، أين أنت؟، لماذا تركتني أنت الآخر؟ لم أتحدث إليك مطلقًا، طالما تجاهلتك، لم ألتفتُ إليك من قبل مطلقًا، وفي اليوم الذى أحتاجك فيه تتركني؟!

صرختُ بأعلى صوتى، جريتُ فى الصحراء بلا هوادة لعلي أجده مختفيًا بين الرمال، ولكنه كأن لم يكن، ماذا فعلتُ لك؟، اشتدت الرياح لتبتلع صوت صراخي، وكأن من يراني من بعيد يضحك ولسان حاله يقول:، "مال لهذا المجنون يصرخ بلا صوت!"

عدتُ إلى مسكني، اتصلت بأقرب صديق لي أخبره بمصيبتي، أقول له:، لقد اختفى ظلي، ولكني لم أسمع منه إلا صوت ضحكات، أغلقت سماعة الهاتف فى وجهه، حاولتُ أن أنام لكي أنسى الأمر، ولكن صوت بكائي غلب نداء نومي، حاولتُ أن أخفف عن نفسي، فقدتُ أصدقاءً هم أعز عندي منك يا صديقي الظل، ليس مرة ولا مرتين، ولم يكن حالي مثل ذاك، تغلبتُ على حالي ورحت فى سبات عميق كأني لم أنم من قبل.

"أين أنا؟ ومن أنت؟"

وجهتُ كلامي إلى ذلك الشخص الغريب الذى يرمقني بنظرات غريبة، ولم أكن أتبين شكله كأنه ظل أو ما شابه!

"من أنت؟، لماذا لا تجيبني؟"

اقترب مني بخطوات هادئة، وبالرغم من هذا لم أتبين شكله أبدًا، لا أستطيع أن أصفه إلا بأنه ظل.

"ألا تعرفني؟" وجَّه إليَّ كلامه بصوت أكاد أقسم أنه صوتي، غير أن هذا الصوت عميق إلى أبعد الحدود كأنه يأتي من كهف بعيد.

نظرتُ إليه والخوف يكاد يقتلني قائلاً: "لا أعرفك، ولكني أشعر أنى رأيتك من قبل، من أنت؟"

ابتسم لي – أو كما تراءى لى أنه يبتسم – قائلاً: "أنا من تبحث عنه، أنا ظلك!"

كدتُ أسقط من فرط المفاجأة، ولكنى تمالكتُ نفسي قائلاً: "وأين أنا؟، وماذا تريد مني؟"

عقد هذا الكائن يديه خلف ظهره وأخذ يمشي كأنه يتنزه قائلاً: "أين أنت؟ .. فلنقل إنك في حلمك، فإنى لن أستطيع أن أتكلم معك إلا من خلاله، فالحلم هو صديق لي، وماذا أريد منك؟ ... تعالى معي لأريك ما أريده منك"

تقدم نحوي ثم مد يده آخذًا بيدي، وأخذ يسير بخطوات هادئة، وقد كدتُ أقسم أن رجليه لا تلمسان الأرض بتاتًا، حتى وصلنا إلى باب حجريٍّ كأنه مدخل لمغارة مخيفة، تلك التي تذكرك بالعصور السحيقة كالتي نراها فى الأفلام، وقف أمام ذلك الباب الحجري وأخذ يتمتم بكلمات غريبة وبصوت مخيف تغلغل فى أعماقى واقتلع مني كل ذرات الشجاعة التى أمتلكها، ثم سكتَ قليلاً إلى أن فُتِح الباب، أخذ بيدي إلى الداخل وقد سقط قلبي بين قدميَّ وسقطتُ على ركبتي وقد تملكني الخوف كأنى قلادة له، وأنا أرى عشرات – بل مئات – الظلال التى تشبهه، ولكن بعضها طويل والآخر قصير، ومنهم من هو عريض ومنهم الرفيع, وبمجرد دخولي توقفوا جميعهم عن الحديث وأخذوا ينظرون إليَّ، وجاء أحدهم وقد كان أكثر طولاً، وأخذ يتحدث بصوت غريب وبكلام غير مفهوم إلى ظلي كأنه يوبخه ثم صرخ فيه، وأخذ الجميع يصرخون، وضعت يديَّ على أذني وأخذت أصرخ من الخوف..

- "بسم الله الرحمن الرحيم"

أول كلمة قلتها بعدما استيقظتُ من هذا الكابوس البشع، لملمتُ شتات خوفي، وقمتُ من على سريري, أعددتُ كوب الشاي المحبب لي، وأخذتُ أفكر فيما حلمتُ به، وتذكرتُ الصحراء، ولكنى تذكرتُ أني لم أذهب إلى الصحراء، ولم أخرج اليوم من البيت، بل كان حلمًا داخل حلم، صليتُ وارتديتُ ملابسي لأذهب إلى عملي، نزلتُ من مسكني واستوقفت سيارة أجرة، ولكن ما راع انتباهي أن هذه السيارة كانت كالتي رأيتها في الحلم، ولكن سرعان ما قذفت عن عقلى هذه الأفكار وهذا الحلم، وصلتُ إلى مقر عملي، ترجلت من السيارة وأعطيت السائق أجرته، أخذ السائق مني المال ثم ابتسم لي ابتسامة غريبة، ثم قال: "تبدو لي وكأنك رجل فقدَ ظله"، ثم تركني وابتعد، أحسستُ بقشعريرة تجتاح جسمي وخصوصًا عندما دخلتُ وسلمتُ على صديقي فى العمل ببرود، وقد قال لي هذا الأخير: " ماذا بك؟ كأنك فقدتَ خفة ظلك! " ثم تركني وذهب...

أحسستُ أن الجميع قد تآمروا ضدي، هرعتُ إلى خارج المبنى لأقف في الشمس لأطمئن على ظلي، ولكني اصطدمتُ بحارس المبنى وقد كان طويل الجسم يتبعه ظله الأطول منه وهو يقول مبتسمًا: "رويدًا، لقد كدتَ أن توقعني" ثم أخذ يرمقني وأنا أنظر لظله على الأرض قائلاً: "هل فقدتَ شيئًا؟" رددتُ عليه بصوت خافت خائف وأنا أرمق الأرض بعيني: "نعم، فقدتُ ظلي" بالفعل فقدتُ ظلي، لم أجد على الأرض إلا ظله الطويل، قال لي: "عفوًا، لم أسمعك جيدًا" تركته، ودخلت المبنى مرة أخرى وقد توقف عقلي عن التفكير، فخارج المبنى حدث فعلاً ما رأيته فى الحلم .... لقد فقدتُ ظلي !!

أنهيتُ عملي مبكرًا لأعود إلى منزلي، لم يكن عندي القدرة على تناول الطعام فى هذا اليوم الغريب، فقد كان ذهني مشغولاً بذلك الأمر الخارق للطبيعة.

" حتمًا هنالك تفسير علمي "!

قلت هذا لنفسى بصوت عالٍ، قررتُ أن أتحدث إلى الدكتور سعيد – صديقي الطبيب النفسي والذى يكبرني بعشرين عامًا– ذهبتُ حيث يوجد الهاتف، ولكن استوقفتني صورتي فى المرآة، اقتربت من المرآة لأرى نفسي وأنا أشعر أن هناك شيئًا مختلفًا بي، مددتُ يدي إلى المرآة لأتلمسها، أشعر بشيء مختلف فى صورتي المنعكسة على المرآة، لا أعرف ما الفرق؟ ولكن شعوري يخبرني بأن هناك شبح ابتسامة على وجهي ..... أخذت أتلمس المرآة بيدي وأشعر أن صورتي المنعكسة تبتسم لي ابتسامة مخيفة، لامستْ يدي صورتها المنعكسة، أشعر أنهما تمتزجان، أردتُ أن أسحبها ولكني لا أستطيع، نظرتُ إلى وجهي المنعكس وعلامات الخوف تملأني، ولكن صورة وجهي لم يظهر عليها الخوف كما يظهر عليَّ، ثم ازدادت ابتسامة صورة وجهي حتى تحولت إلى ضحكة مخيفة وهى تجذبني إلى المرآة حتى ابتلعتني تمامًا.

- " أين أنا؟"

مكان غريب مليء بالمرايا، وصورتي فيها فى كل مكان، صورة ضاحكة وأخرى باكية وثالثة خائفة، أحسستُ بوقع خطوات تأتي من ورائي، نظرت لأجده، إنه ظلي قد جاء وخلفه عشرات الظلال، أخذ يحيط بي هو وباقي الظلال، وقد شكلوا دائرة كبيرة وأخذوا يلتفون حولي ويصرخون صرخات جنونية، وازدادت سرعتهم إلى حد الجنون، وأنا أضع يدي على أذني وأصرخ من الخوف.

"يا رب!"

قلتها فسكن كل شيء، وعدتُ لأجد نفسي ملقىً أمام المرآة، كأني قد أغمي عليَّ، جريتُ إلى الهاتف.

- " دكتور سعيد، أريد أن أراكَ الآن! "

خرجتُ من بيتي مسرعًا إلى عيادة الدكتور سعيد.

- " انجدني يا د. سعيد "

قال لي مبتسما: " اهدأ قليلاً يا بنيَّ، ماذا دهاك؟ "

- قلت له بصوت خائف: " لقد فقدتُ ظلي"، قلتُ ذلك وأنا أشعر أنه سيضحك على كلامي وأنه لن يصدقني.

ولكنه نظر إليَّ مهتمًا، وقال: " احكِ لي بالتفصيل ماذا حدث !".

قصصتُ عليه كل شيء، من بداية الحلم حتى المرآة وما حدث لي أمامها.

انتهيتُ من كلامي، وكنتُ أشعر من نظراته أنه يصدقني. سكتَ قليلاً ثم نظر إليَّ قائلاً:

- " منذ حوالى الثلاثة أشهر، ازدادت فى أوساط الطب النفسي بلاغات عن فقدان الظلال كما حدث لك، اعتبر الأطباء أن هذا الأمر هوس نفسي، وبالتالي قاموا بجلسات علاج لهؤلاء الأشخاص، ولكنهم لم يخضعوا للعلاج وأدى الأمر بهم إلى الانتحار– أو هكذا تم تشخيص الأمر كأنه انتحار – ولم يهتم هؤلاء الأطباء فى بلدنا بهذا الأمر، ولكنى تتبعتُ الأمر وراسلتُ بعض الأطباء فى الولايات المتحدة، وفى يوم قرأت مقالاً لأحد الكتاب فى جريدة أمريكية تتحدث عن سرقة الظلال"!

سكت الدكتور سعيد ليشعل غليونه، لم أصدق تلك التراهات، أن ما حدث لي قد حدث لغيري، وأنهم جميعهم ماتوا أو انتحروا.

- " ماذا تقول يا دكتور؟ سرقة ظلال! "

- نظر إليَّ الدكتور سعيد قليلاً ثم أردف: " أسمعتَ عن السحر الأسود من قبل؟ "

- " نعم يا دكتور، سمعت به "!

- " يتحدث كاتب المقال عن كتاب تم اكتشافه فى إيطاليا أثناء التنقيب عن بعض الآثار الرومانية، يعود هذا الكتاب للعصور القديمة وهو باللغة اللاتينية، وهو أحد كتب السحر الأسود وعنوانه: "الظل الأسود"، يتناول كيف يتم سرقة الظل ليموت صاحبه وبه تعاويذ فرعونية قديمة وأخرى لاتينية، وجد هذا الكتاب عامل حفر إيطالي، وقد أخفاه عن الجميع ثم باعه لأحد الأشخاص، ولا أحد يعرف أين هذا الكتاب الآن"!

– " دكتور، إن ما تقوله – سامحنى– ضربٌ من الخيال".

أكمل الدكتور سعيد كأن لم يسمعني: " قمتُ بترجمة هذا المقال ونشرتُه فى إحدى المجلات الطبية الدورية، وقد أضفتُ اليه الوقائع التى حدثت هنا فى مصر وعن الأشخاص الذين انتحروا كما يقول أطباؤهم النفسيون، وقلت إن هذا الكتاب من المحتمل أنه يوجد فى مصر الآن ويتداوله أحد السحرة المعاصرون، ويقوم باغتيال هؤلاء الأشخاص بهذه الطريقة الغريبة".

نظرتُ الى الدكتور سعيد غير مصدق، وقلت له بعصبية: "من الواضح يا دكتور أنك تحتاج لطبيب نفسي" ثم قمتُ وتركته.

وها أنا يا صديقي قد أرسلتُ إليك خطابًا بكل ما حدث معي، فأنا لا أعرف إلى من أتكلم؟ وخفت أن أتحدث إليك هاتفيا فلا تصدقني ولا تدعني أكمل قصتي ...".

طويتُ الخطاب الذى وصلني متأخرًا، بعد أن وجد الجيران صديقي ميتًا فى منزله أمام المرآة وقد قيل فى التقرير الشرعى إن علامات الخوف وجدت وجه الجثة، أخذتُ أبكي لأنى ضحكتُ عليه عندما اتصل بي هاتفيا ليخبرني أنه فقد ظله، واضطر أن يغلق الهاتف عندما بدأتُ فى الضحك، لم أكترث حقًّا أن أتصل به مرة أخرى لأعتذر عن ضحكاتي وأدعه يكمل حديثه، فقد غلبني كبريائي. قمتُ لارتدي ملابسي ثم ذهبت لعيادة الدكتور سعيد وطلبت مقابلته.

انتهى الدكتور سعيد من قراءة الخطاب، ثم نظر إليَّ قائلا: " البقاء لله فى موت صديقك، ولكن من الواضح أن صديقك كان ذا خيال جامح؛ لأن ما رواه فى الخطاب لم يحدث وأنا لم أتحدث معه فى هذا الموضوع أبدًا، وقد كانت آخر مرة جلستُ فيها معه منذ ثلاثة أشهر!"

نظرت للدكتور سعيد وعلامات الاستغراب على وجهي، وقلت له: "وماذا عن هذا المقال الذى ترجمته..؟"

قاطعني قائلاً: " لم يحدث ولم أقرأ هذا المقال أبدًا، ولا أعرف من أين أتى صديقك رحمه الله بكلامه عن هذا الكتاب؟ "

قلت له: " ماذا تظن يا دكتور ؟"

قال مبتسمًا: " أظن أنها حالة من الهوس النفسي والاكتئاب، أدت به إلى تلك الخيالات المفرطة، مما أدى به إلى الانتحار خوفًا"!

قلت له باستغراب واضح: " أيعقل هذا يا دكتور؟ أهناك نوعٌ من الانتحار بالخوف؟"

رد عليَّ قائلاً: " نعم، ولكنه نادرًا ما يحدث؛ لأنه يحتاج إلى خيالات مفرطة وتعايُش مع الخوف مستمر على مدى شهور".

قلت له: " ولكنه كما ذكر فى خطابه أن ما أصابه قد حدث له فى يوم واحد فقط ".

قال لى بنفاد صبر: " هذا ما ذكره فى الخطاب يا بنيَّ، وليس الحقيقة ".

نظرتُ إلى الدكتور سعيد، وكنت أشعر أن هناك حلقة مفقودة، لم أكن مقتنعًا بأن صديقي الضحوك خفيف الظل من الممكن أن يموت منتحرًا، وأنه كان يعيش فى حالة من الهوس النفسي على مدى شهور ولم يلاحظ عليه أحد تلك الأمور.

سادت حالة من الصمت إلى أن رن جرس الهاتف فى مكتب الدكتور سعيد، فاستأذنت منه أن اذهب وغادرتُ المكان لأذهب إلى بيتي كى أفكر قليلاً فيما حدث.

***

" نعم، أنا الدكتور سعيد، مرحبًا بك.. نعم لقد عدتُ من السفر منذ ثلاثة أشهر، كنتُ في إيطاليا، فلتأخذ موعدًا من السكرتيرة فى الخارج"

أغلق الدكتور سعيد السماعة ثم قام الى مكتبته المليئة بالكتب، وأخرج منها كتابًا وضعه على مكتبه وأخذ يقرأ فيه، ثم توقف قليلاً ونظر إلى الشهادات المعلقة على الحائط خلفه، وهو يرمق إحداها مبتسمًا، وقد كُتب عليها: " دكتور/ سعيد حسنين... تفوق وإجادة اللغة اللاتينية"، ثم أكمل قراءته فى الكتاب إلى أن أغلقه وهو ينظر لعنوانه المكتوب باللغة اللاتينية فقرأه بالعربية بصوت عالٍ: " الظل الأسود !"

ثم أخذ يضحك ضحكة مخيفة لا تليق بطبيب مهذب، بل تليق بسحرة العصور الوسطى!

***

لم أكن أصدق ما رواه لي الدكتور سعيد، وصلت إلى منزلي وهممتُ بالصعود، ولكني تخيلتُ للحظة أن ظلي قد اختفى؛ فنظرتُ إليه لأجده فى مكانه، فحمدتُ الله ولم أنظر مرة أخرى، وياليتنى نظرتُ إليه مرة أخرى، لأنه قد اختفى بالفعل، ولكنت علمتُ أني التالي وأن ثمن المعرفة هو الموت على يد أقرب صديق لي، يد الظل!

شفرة العقل الباطن

"المصيبة ليست في ظلم الأشرار بل في صمت الأخيار"

نوثر كينج

(١)

نبيل وأنا

(قبل ستة أشهر)

أنهيتُ في ذلك اليوم المؤتمَرَ الصحفي عقب الندوة التي عُقدتْ في مدينتي الكبرى، ثم اتجهتُ إلى ذلك المطعم القابع بجوار النهر، وطلبتُ وجبة الغداء المفضلة لديَّ، وأخذتُ أفكر قليلاً في تلك الندوة التي عُقدتْ عن مشكلة الصحة والسكان، وذلك الكلام الذي لا نفرغ من سماعه مرة بعد الأخرى، عملي كصحفيٍّ كان يقتضي مني حضور تلك الندوات والمؤتمرات، فرغتُ من طعامي وما زالت أفكاري حاضرةً عن تلك الندوة، وذلك الشخص الوقور الذي كان يجلس صامتًا بين الحضور يبتسم ويصفق بكلتا يديْه، كنتُ أجلس في آخر القاعة – في مكاني المفضل – ثم رأيتُه، كان يجلس أمامي بصفٍّ أو صفين، وكان وقورًا على غير العادة، كان يذكرني بمعلمي القديم في المرحلة الإعدادية– معلم الرياضيات– كأني أراه أمام عيني الآن، يبتسم لي ويشجعني على الاستمرار في أدائي المتميز ومستواي الدراسي الملفت للنظر، كم كنتُ أحب ذلك المعلم!

هكذا تكون تلك الندوات العقيمة، تجعلك تلقي كل تركيزك على شيء آخر بعيدٍ تمامًا عن فحوى المؤتمر، ولا تتذكر غير بعض الوجوه وبعض التعبيرات المتضاربة بين شخص سعيد وآخر مكتئب وثالث تبعث تعبيرات وجهه على النعاس، ولكن ما باليد حيلة! يجب أن أضع تقريرًا بين يديْ رئيس التحرير وفيه ما لذ وطاب من الأكاذيب والوعود التي لن تتحقق، أخذتُ أنفض عن تفكيري تلك الأشياء، وأحاول أن أنسى وجه ذلك الرجل الوقور الذي ذكرني بمعلمي المحبوب، لأعد ذلك التقرير الإجباري كي يصبح جاهزًا قبل المساء حتى يلحق بالطبعة المسائية من الجريدة التي أعمل بها.

طلبتُ من النادل أن يأتيني بكوب الشاي الساخن لأمارس طقوسي الخاصة بعد تناول الغداء وهي إشعال ثلاث سجائر متعاقبة مع كوب الشاي، وهي كل رصيدي من السجائر طيلة اليوم، طالما حاولتُ أن أنتهي من تلك العادة التي أشمئز منها، ولكن طبيعة عملي تجبرني على السفر أيامًا طويلة والمكوث طويلاً في بلاد ليس لي فيها أنيس ولا جليس ولكني استطعتُ أن أصل بنفسي بعد عناء طويل بأن أختصر تلك العادة في تلك الدقائق المعدودة، تذكرتُ زوجتي – رحمة الله عليها – التي دائمًا ما كانت تطلب مني أن أتوقف عن التدخين، ودائمًا ما كنتُ أعاهدها على أن أنتهي حتى ماتت رحمها الله دون أن أفعل!

انتهيتُ من السيجارة الثانية وما زال كوب الشاي ممتلئًا إلى نصفه؛ ما جعلني أتجرع رشفة كبيرة لأصل لثلث الكوب الأخير لأشعل السيجارة الثالثة، اللعنة، متى أتخلص منها نهائيًا؟! أخبرني أحد أصدقائي من قبل أنه لم يتخلص منها إلا بعد أن التزم بالدين وانتهى منها بِنيَّة التقرب من الله، كم أغبطه! ولكن ما فعله صديقي بالنسبة لي من المستحيلات، فكيف أنتوي تلك النية وأنا لا أصلي إلا الجمعة أو ركعتين عند استيقاظي من النوم؟ طالما فكرتُ في الالتزام ولكني أخاف أن أعود لسابق عهدي، حتمًا هناك وسيلة تحفزني على الالتزام، أشعر بأن شيئًا ما سيجبرني على ذلك، أخاف على سنوات عمري أن تنقضي دون أن يتغير حالي، قد أنهيتُ عقدي الرابع بنجاح ولكني أشعر أن نهايتي قريبة، شعور دائمٌ كان يملأني حتى وأنا في سبيلي للنوم، كنتُ أحدث نفسي كل يوم: "لعلها آخر ليلة تقضيها في تلك الدنيا ثم تذهب إلى عالم آخر غريب عليك"، وعندما أستيقظ في الصباح أحدث نفسي بأني من المحظوظين!

نفضتُ عن عقلي تلك الأفكار حتى أركز في التقرير الذي سأكتبه، انتهيتُ من سيجارتي الثالثة ثم أخرجتُ مفكرتي وقلمي وأخذت أخط بعض الكلمات، توقفتُ قليلاً ونظرتُ إلى ماء النهر الجاري، ثم أخذتُ أخط بقلمي مرة أخرى فوجدتُ نفسي قد رسمتُ صورةً لشخص ما، نظرتُ في الورقة التي أكتب فيها وعرفتُ من هو ذلك الشخص، ما زال يشغل تفكيري بالرغم من أنه مرَّ إلى الآن شهر على لقائي به، عندما ذهبتُ لذلك المؤتمر الذي عقده اتحاد الجمعيات الخيرية والأهلية في ذلك المسرح الكبير، كم كان مؤتمرًا كبيرًا حضره آلاف الأشخاص، لم أكن أعلم أن لدينا هذا الكم الهائل من الجمعيات الخيرية!

بدا المؤتمر عاديًّا إلى أن صعد ممثل كل جمعية على المنصة ليلقي نبذة عن جمعيته والإنجازات التي حققتها، حتى جاء الدور على جمعية (صناع النهضة)، وكان المندوب المتحدث باسمها شخصٌ مهذب ولبق، وفي آخر كلمته التي لم تستغرق دقائق معدودة قال إن من سيتلو إنجازات جمعيته هو واحد من أولئك الأشخاص الذين فعلوها بأيديهم في فقرة سماها "هدف وتحقق"؛ فترك المنصة ليصعد شخص آخر عليها، وبمجرد صعود ذلك الشخص إلى المنصة شعرتُ بالتوتر على وجه مندوب الجمعية وأعضائها الذين حضروا المؤتمر، وقد سمعتهم – فقد كنت على مقربة منهم – وهم يتهامسون بأن ذلك الشخص لم يكن هو الشخص المطلوب، وهم لا يعرفونه بتاتًا، راقبتُه باهتمام، كان في العقد الثالث من عمره، أسمر البشرة، عريض المنكبين، وسيمًا إلى حد ما، ولكن ما جذبني إليه هي ابتسامته الساحرة، فعندما ابتسم أمام الحضور ليبدأ بإلقاء كلمته سكت الجميع، وكانت كلمته غريبة جدًّا ولم تستمر إلا ثوانٍ معدودة قال فيها كلماتٍ ما زالت محفورة في ذهني....

"إخوتي الكرام: تحية طيبة لكم وبعد، سأغير العالم في ستة أشهر، شكرا لكم!". ثم ترك المنصة وخرج من القاعة الكبيرة كأنه لم يكن!!

مازالت صورة ذلك الشاب في مخيلتي لم أستطع التخلص منها، بالرغم من أني قد ضحكتُ مع من ضحكوا بعد أن قال تلك الكلمات، ولكني كنتُ أشعر في كلامه بالصدق البالغ.

تركتُ المطعم، وذهبتُ إلى شقّتي لأرتاح قليلاً وقد وعدتُ نفسي أني سأنهي ذلك التقرير بمجرد استيقاظي من النوم.

لم يمر على نومي ساعة واحدة حتى استيقظتُ على رنين الهاتف، فرفعتُ السماعة وأنا لا أزال راقدًا، اعتدلتُ في جلستي عندما سمعتُ ذلك الصوت وكان لصديقي (نبيل) زميل المهنة والدراسة.

- " أنا نبيل."

- " أعلم أنه أنت، كيف حالكَ يا صديق الدراسة وزميل المهنة؟"

ضحك نبيل قائلاً: "بخير حال، بالطبع تتساءل لماذا أتصل بك وقد مر على آخر اتصال بيننا ثلاثة أشهر؟!"

- "كأنك تقرأ أفكاري يا نبيل، ولكن من المؤكد أنك كعادتك تريد سرقة أخباري لتنقلها لصحيفتك الوطنية !"

ضحك نبيل قائلاً: "لا والله ليس لهذا، أنا أعلم ما هو الوقت المناسب لسرقة الأخبار منك."

- "وما هو؟"

- "عند الظهيرة وبعد تناولك للغذاء وممارسة عادتك الغريبة في التدخين، يكون ذهنك ثقيلاً جدًّا وتريد أن تنام بشتى الوسائل، عندها تصبح كالطريدة السهلة وأنا كالفلكِ المفترس!"

- " إذنْ فأنت تريد اقتراض بعض المال من شخص مفلس مثلي؟ "

- " ولا هذا أيضًا يا صديقي، هل تتذكر ذلك المؤتمر الذي حضرناه سويًّا عن الجمعيات الخيرية؟ "

- " نعم أتذكره."

- "هل تتذكر ذلك الشاب الغريب الأطوار الذي صعد إلى المنصة وقال إنه سيغير العالم؟"

- "نعم، ولكنه لم يكن غريب الأطوار على الإطلاق، بل كان سويًّا في نظري."

- " أيًّا كان، كنتُ بالصدفة في تلك الجمعية المسماة بـ(صناع النهضة) منذ يومين، أتحاور معهم قليلاً عن أنشطتهم وإنجازاتهم، فتذكرتُ ذلك المؤتمر وذلك الشخص الغريب الأطوار، وتجاذبتُ معهم أطراف الحديث، فأخبروني أنه ظهر مرة أخرى في مقر الجمعية الرئيس لهم بعد المؤتمر بأسبوع كامل، وبينما كان أعضاء الجمعية جلوسًا يستمعون لرئيس الجمعية، إذ استأذن ذلك الشخص منه ليقول شيئًا؛ فقال الكلمات نفسها... إنه سيغير العالم في ستة أشهر! فتذكروه على الفور، وأنه الشخص ذاته الذي أضحك الجميع عليهم في المؤتمر، أخبرهم مرة أخرى أنه سيغير العالم في ستة أشهر وطلب مساعدتهم؛ فنهروه وضحكوا منه فتركهم وخرج مبتسمًا."

- "وإن يكن!"

- " بعدها عرفتُ أنه ظهر تقريبًا في كل فروع الجمعية في الأسبوع نفسه الذي ظهر فيه في مقر الجمعية الرئيس، وقال الشيء نفسه، وبالطبع استغربتُ من الأمر، ووجدته أرضًا خصبة لمقال صحفي عن شخص مجهول يغزو الجمعيات الخيرية بأفكاره الغريبة، ومن يهتم بتلك الأمور غيرك يا صديقي؟!"

- " ولماذا لا تهتم أنت بها ؟"

- " أنت تعلم أن لدينا قضايا وطنية كبيرة نعالجها في صحيفتنا."

- " أضحكتني يا صديقي، لقد أصبحت قوميًّا مثلهم، وتحاول أن تخدعني الآن بتلك الشعارات التي عفا عليه الزمن!"
نبيل ضاحكًا: "ما زلتَ كما أنتَ دائم النقد، ما جعلك تتجه لتلك الصحف المسجونة في عقول البعض."

- " ولكن البعض الذي تتحدث عنه هم تلك الفئة التي طالما كانت تناضل من أجل ما كنتَ تنادي به من قبل."

- " نعم يا صديقي، لكل زمن وقته، وأنت لا تزال تعيش كما أنت في خريطة عقلك القديمة التي لم تتغير منذ ثلاثين عامًا!"

قلت ضاحكًا: "غريب.. من يقول إن هذا هو نفسه الذي كان يقود المظاهرات في الجامعة ويحمس الجميع، هو نفسه الذي سُجن واعتُقل في عهد السادات، ألا تتذكر يا صديقي من كان يسهر الليالي يعد المقالات ضد سياسة الانفتاح وينشرها في جريدة الكلية، وفي اليوم الثاني لا نجده فنعرف أنه قد اعتُقل؟! "

سكت نبيل قليلا ثم أكمل قائلاً: "ما زلتَ يا صديقي كما أنتَ، فلتنظر إلى سنوات عمركَ التي انقضت دون أن تحقق شيئًا مما كنا ننادي به. يا صديقي، الأملُ في المستقبل المشرق الذي نادينا به أصبح من المستحيلات، منذ سنوات عديدة وأنت كما أنت ما زلت متمسكًا بأنقاض الماضي!"

- " إن تلك الأنقاض هي التي تبقيني على قيد الحياة طالما أعلم أن هناك أملاً."

- " إن كلمة (أمل) قد ألغيت من قاموس بلادنا يا صديقي البائس، أدرِك نفسك قبل أن تنقضي سنوات عمرك وتجد أنك لم تكتنز شيئًا على الإطلاق سوى بعض ذكريات الماضي المنقضية! "

- " وإن كانت كلمة (أمل) قد ألغاها قاموس عقلك، فلماذا اتصلتَ بي لتخبرني عن قصة ذلك الشاب الذي سيغير العالم في ستة أشهر؟!"

سكت نبيل قليلاً ثم قال: "لا أعلم يا صديقي، الحقيقة أني عندما رأيتُ ذلك الشاب في المؤتمر وبالرغم من أني قد ضحكتُ عليه مع من ضحكوا؛ ولكني شعرتُ فيه بالصدق البالغ، وأنا أفتقد ذلك الشعور بالصدق، أعيش الآن أكبر كذبة في حياتي، تعمقتُ في عالم الأكاذيب، بل أصبحتُ مؤسسًا لإحدى المدارس، لم أعد أقوى على البحث عن الصدق، أرى فيكَ ما أفتقده يا صديقي، أرى فيكَ المبادئ التي تخلى عنها الجميع، ولذلك فقد اتصلتُ بك، علَّك تبحث عن هذا الشاب – أقصد هذا الأمل– لعله الأمل الذي تنشده في ذلك العالم المخادع الكاذب الذي نعيشه، لعلك ترتاح يا صديقي المعذَّب! "

سكتُّ قليلاً، وقد شعرتُ بالتأثر، وشعرتُ بالرأفة على حالي وحاله ثم قلت: "لن نتغير يا نبيل، سنظل كل مرة نلتقي فيها أو نتحدث فيها عبر الهاتف نتجادل ونختلف ثم ننتهي بالحقيقة التي لن تتغير... أننا أصدقاءٌ."

أنهيتُ المكالمة مع نبيل، ثم غسلتُ وجهي، وإذا بالهاتف يرن مرة أخرى، إنه رئيس التحرير يسألني عن المقال، وقد وبخني بما لذ وطاب من الكلمات مثل: "لقد أصبحتَ كسولا "، "إني أحذرك "، "المرة القادمة سأخصم من راتبك"!
عجبًا لذلك الزمن! أصبح الصحفيون والكتاب سلعة تُباع وتُشترَى، اللعنة على ذلك المقال. أخذتُ أركز قليلاً إلى أن قمتُ بتأليف مقالٍ عجيبٍ، وبعد أن قرأته وجدتُ أن شيئًا مما كتبته لم يحدث في المؤتمر. أنهيتُ ذلك المقال العجيب، وأرسلتُه إلى الجريدة بالفاكس، ثم ارتديتُ ملابسي وخرجتُ إلى الشارع حيث المكان المفضل إلى نفسي، بين الناس، أرى الناس يمشون في الطرقات ويتراصون أمام المحلات المضيئة، إنها المحلات القديمة نفسها، تلك الواجهات المضيئة هي ذاتها التي كنتُ أراها منذ عشرين عامًا أو أكثر، ولكن ما بها قد تغير كعقولنا التي تغيرت، عندما أمشي بين الناس وأرى هموم لقمة العيش ترتسم على أوجه الجميع، أشعر بأن (الأمل) لن يأتي ولو بلغ العمر أرذله، ومع هذا فما زلت متمسكًا بهذه الكلمة، أعلم أننا قد فقدنا العزيمة على البقاء والنضال من أجل الأمل، فسنوات الشباب تخبو

كالشمعة، ولكن في وسط عاصفة الماضي التي طالما تجتاح تفكيري وأنا أمشي في تلك الشوارع المزدحمة، أتذكر ذلك الشاب الذي وعد الجميع أنه سيغير العالم في ستة أشهر، كم كان مؤمنًا بما يقول! رأيتُ في عينيه عزيمة ذكرتني بصديقي نبيل وجميع رفاقنا عندما كنا نحمل هموم البلد على أكتافنا، نتغذى على الشعارات البراقة، نرى في (السادات) أمل الغد، ماعدا نبيلاً بالطبع، كان يعرف أن الانفتاح لن يعود بالخير– عكسنا تمامًا – كنا في انتظار النهضة يومًا بعد يوم، ولكن أين نبيل الآن من تلك الأيام؟ مرت علينا الأيام والسنون ومضى عهد السادات وما تحقق شيءٌ، تغيرت المعالم، ازداد الكذب، ماتت الضمائر، قلَّت العزائم، هموم البلد لم تجد من يحملها فتوارت في الأرض، وركنتْ إلى ركن مظلم، ياالها من أيام، لو كنا قد فهمنا الخدعة الكبرى من بدايتها، لكنا أحدثنا ثورة قضت على "الأمركة" قبل أن تحدث، ولكننا قد وثقنا فيه وفيمن قبله وفيمن بعده، وتركنا الشباب يضيع ويتجه إلى عالم آخر رسّمه البعض من هواة رسم خرائط الشعوب، هل هذا معقول؟ أما زال هناك أمل ؟!

أخبرني أيها الرجل العجوز وأنت تجلس على جانب الطريق تشوي (الذُّرة) للمارة، أما زال هناك أملٌ؟ أنت شاهد على كل حقب التاريخ في هذا الشارع العتيق، من قبل ثورة الضباط الأحرار وحتى الآن، أما زال هناك أمل؟ أما زال لتلك الأمة المستباحة قلب ينبض؟ أخبرني أيها الطفل الصغير، هل ستحمل هموم البلد على كتفيك عندما تكبر، أم أنك ستذوب كما ذاب مَن قبلك؟ أخبرني أيها الشاب المتدين وأنت تسير في الشارع رمزًا لدين العزة، أما زالت هموم البلد عزيزة عليك، أم أنك قد ذبتَ كما ذاب غيرك من قبل؟

أخبروني أيها الناس، هل مات الأمل كما أخبرني نبيل؟ ولماذا أخبرني بحكاية هذا الشاب؟! ليتحداني من جديد؟ لنعيش نفس الصراع القديم ونبحث عن الأمل في صورة ذلك الشاب؟ أيريدني أن أراه قد فشل في تغيير العالم كما ذكر في ستة أشهر حتى أتيقن أنه لا أمل؟

ما حكايتك أيها الشاب الغريب، وما حكاية حلمك الغريب، أتعنى أنك ستغير من نفسك، أم من شارعك، أم من مدينتك، أم من بلدك، لماذا تحديتَ الجميع وقلتَ إنك ستغير العالم، هل ليضحكوا عليك ويسخروا منك فيدفعوك للنجاح، أم لأنك تهوى الفشل؟!

سنرى ذلك عندما أجدك، يجب أن أعود لبيتي مرة أخرى قد تعبتُ من النظر في وجوه الناس، سأعود وأبكي على سريري، على زمن ولَّى على كذبة عشنا فيها جيلاً محدوعًا، جيلاً من الممكن أن تلعنه الأجيال القادمة، ويسخر منه جيل الحرب والسلام، ومن قبله جيل الثورة والتحرير.

(2)

ياسمين

(قبل خمسة أشهر)

تلك الطفلة الجميلة في عمر الزهور في السابعة من عمرها، عندما تراها تشعر كأنك ارتحلت إلى دنيا أخرى غير التي نعيشها، دنيا من النقاء والبراءة والجمال، ترى شعرها الذهبي ينسدل على كتفيها ويغطي وجهها الأبيض الرقيق، تريد أن تحتضنها، تراها فطرة الله التي فطر الناس عليها مجسمة أمامك، تمشي على الأرض فتجلب معها لفحات الهواء العليل في أجمل أيام الربيع.

(ياسمين) تلعب في فناء المنزل الخلفي، تدندن بأجمل الكلمات بصوتها العذب الطفولي وتلعب على الحشائش الخضراء مع دميتها البيضاء، وتضحك لها وتحتضنها.

هناك عينًا ما ترصدها، عين شيطان مارد..وحش بشع تجرد من أسمى معاني الحب ليتزود بأبشع معاني الكراهية.

هو يكره الخير والجمال ويعشق الألم والعذاب، يراقبها منذ فترة، يرى فيها ما لا يجده في نفسه، ظل يرقبها كل يوم ليتحين الفرصة المناسبة كي يذبحها ذبحًا ويفترسها افتراسًا دون مبرر ودون سبب، يتجه ناحيتها وفي يده سكين الموت التي يشعر عندما يحملها بأنه قوي قادر على كل شيء، وهو في الحقيقة يخفي وراءها ضعفه ودناءته، وبينما هو في طريقه نحوها نادت عليها أمها من خلف النافذة التي تطل على الحديقة كي تتناول غداءها، هبت الطفلة الجميلة تلبي نداء أمها فاستشاط هو غضبًا وقرر أن الغد لناظره قريب!

جلست الصغيرة مع أمها تبادلها الضحكات، تلك الأم المتعلق قلبها بابنتها الجميلة التي تملأ البيت فرحًا وسعادة وطفولة.

تناولت الطفلة غداءها وأكملت يومها مع أبيها بعد أن عاد من العمل، اصطحب الأب زوجته وابنته ياسمين إلى أحد المسارح مساءً، وبعد ان انتهى العرض المسرحي ذهبوا لتناول الآيس كريم والمثلجات، والصغيرة ياسمين تملأ الدنيا فرحًا مبتهجة وهي تتنزه مع أمها وأبيها اللذين لم يدركا معنى للحياة وزينتهاإلا بعد أن رزقهما الله بأغلى وأجمل الأشياء...ياسمين.

نامت الطفلة على سريرها في حجرتها الصغيرة بعد عودتهم للبيت، نامت وضحكتها البريئة تملأ وجهها، وقد رأت حلمًا غريبًا هو أقرب للكابوس جعلها تستيقظ فزعة في ظلمات الليل تنادي على أمها؛ فهرعت الأخيرة إليها لتأخذها في حضنها وتطمئنها حتى نامت مرة أخرى، رأت في ذلك الكابوس شيطانًا يقف بعيدًا وينظر إليها ويداه ملطختان بالدماء!

استيقظت الصغيرة وتناولت فطورها ثم اتجهت جريًا إلى حديقتها الخلفية مع دميتها البيضاء لتلعب مع الزهور كما تفعل كل يوم، وحولها يلتف الفراش والعصافير الصغيرة يداعبونها، فكم هي أرق منهم خاصة عندما تدندن وتغني بصوتها العذب فتتراقص الطيور من حولها!

توقفت الصغيرة عن الغناء، شيء ما لفت انتباهها، خُيّل إليها أنها رأت ظِل شخص ما يتجه إلى المرآب الخلفي للمنزل، ذهبت الصغيرة بخطوات بطيئة لتفتح باب المرآب وترى ماذا هناك، دلفت إلى الداخل وأخذت تنظر حولها ولكنها لم تجد أيَّ شيء مريب، أخذت تمشي حتى وصلت لآخر المكان ثم سمعت صوت إغلاق الباب؛ فنظرت وراءها والرعب يملأها لتجد أن شخصًا ما قد أغلق الباب ويقف ناظرًا اليها، أدركت أنه الشيطان الذي رأته في حلمها ينظر إليها وفي يده سكين بيضاء ناصعة، كانت عيناه تتقدان شرًّا، وهو يتلذذ بالخوف الذي ظهر على كل خلجة من خلجات وجهها وهي تتراجع للخلف وهو يقترب منها رويدًا رويدًا، وقعت منها دميتها عندما اصطدمت بالمنضدة الخشبية التي توجد في نهاية المكان، كان قلبها يخفق بشدة وعيناها تملأهما الدموع، اقترب منها الشيطان أكثر وأكثر ثم حملها على المنضدة واضعًا يده اليسرى على رقبتها النحيلة؛ فقالت له الصغيرة بصوت يملأه الخوف: "عماه، ماذا تريد مني؟ ماذا فعلتُ لك؟!"

ردَّ عليها الوحش الشيطاني بصوت بشع يملأه الكراهية:"لم تفعلي شيئًا، ولكني سأقتلك!"

ثم ضحك ضحكة شيطانية وهو يضغط على رقبتها الصغيرة بقوة، فتأوهت الصغيرة، وكلما تأوهت شعر هو باللذة، لذة ضعفها وخوفها، فقالت له ياسمين بصوت باكٍ متوسل: "عماه، إنك تؤلمني بشدة، أرجوك كف عن هذا... لماذا تريد قتلي؟"

نظر إليها الشيطان وقد اقترب بوجهه من وجهها الجميل حتى لامست أنفاسه الكريهة وجهها قائلاً: "لأني...أكره كل شيء جميل، يجب أن تموتي!"

تحدثت ياسمين بصوت مختنق من جرَّاء يده التي تعصر عنقها: "ولكني لا أزال صغيرة." أما الوحش فقد لمعت عيناه وهو يرفع سكينه ويضعه على رقبتها وهي تقاوم وبكاؤها قد بلغ زورته: " إن الله لن يسامحك إن قتلتني!"

- "ولكني لاأكترث!"

ثم أخذ يذبحها ببطء كما تُذبح الخراف، وهي تتأوه، والدم يسيل من رقبتها أنهارًا ليسيل أرضًا ويتجه نحو عروستها البيضاء التي لن تصبح كذلك بعد اليوم، انقطعت تأوهات الفتاة وقد فاضت روحها وصعدت إلى بارئها بعد أن نازعت وهي تُذبح بلا رحمة، وسكن جسدها الذي كان ينتفض كما ينتفض الطير عند ذبحه، وبعدما انتهى الوحش من فعلته وهو يأخذ أنفاسه المتلاحقة نزع يده وسكينه من على رقبة

الصغيرة، وضحك كألف شيطان يضحك وهو ينظر إلى يديه الممتلئتين بالدماء، وإلى جسد الصغيرة الذي سكن بلا حراك وانتهت منه الحياة!

توقف عن ضحكته الشيطانية فجأة عندما رأى على وجهها شبح ابتسامة، كيف هذا وقد ذبحها بيديه، كيف ابتسمت قبل موتها؟ لم يكترث لذلك، غادر المكان بعدما انتهى من مهمته البشعة، خرج من المرآب ليجد الطقس وقد تغير تمامًا، فالسماء التي كانت صافية أصبحت ملبدة بالغيوم، واشتدت الريح، واهتزت عيدان النباتات بشدة كأنها تنتفض وتنازع الروح هي الأخرى، كأن الطبيعة تبكي على مقتل ياسمين، كان الجو مخيفًا بحق، جرى الشيطان خائفًا لا يعلم ماذا حدث للطبيعة من حوله؟ هل ثارت عليه؟ لا يعلم، أخذ يجري بلا هوادة وأوصاله ترتعد، هرب واختفى في ظلمات الحياة ليبحث عن فريسة أخرى.

داخل المرآب يرقد جسد الفتاة، ملقى على المنضدة وهو يسبح في دمائه، لم يعد الشَّعر الذهبي كما كان ذهبيًّا من قبل، بل أصبح ممزوجًا بلون الحمرة –حمرة الدماء – الوجه الأبيض الرقيق أصبح شاحبًا مغطى بالدماء، شبح ابتسامة تحوم عليه، لا أحد علم ما الذي جعل هذا الوجه يبتسم هكذا، ولا حتى الأبوان اللذان دخلا المرآب ليبحثا عن ابنتيهما، ليجداها أخيرًا، ولكن في حال غير الحال، وقد أصبحت جسدًا بلا حراك، تمزه الأم هزًّا ولكنه بلا روح، ثكلت الأم وجُن الأبتمامًا، الرياح تضرب بأجنحتها على جوانب المرآب، صوت الرياح غطى على صوت الصراخ، السماء تبكي بمطر قطراته بلون الدم، هنا ...وفي هذاالمكان حدثت حقيقة واحدة... *ماتت ياسمين!*

بل قتلت، اغتالها شيطان على هيئة إنسان، ولكنه أبعد ما يكون عن الإنسانية، تجرد من كل شيء، تجرد من الحب ومن البراءة وقتل البراءة، ماتت ياسمين فبكت عليها مخلوقات الله، اغتالها إنسان تجرد من أسمى شيء أعطاه الله للبشر، الحب والطهارة، تجرد منهما وأبدلهما بكراهية لا حدود لها ليقتل كل ما هو جميل، وينشر بسكينه صرخات الأمهات الثكالى، وآهات الآباء، لماذا قُتلت؟ وكيف؟ ومن هو المستفيد؟ سؤال غريب وحادثة أغرب لطفلة أجمل من الزهور، لماذا قتلوكِ يا ياسمين يا أجمل الأطفال وأرق الأزهار؟

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)﴾

آية قرآنية بكيت عند سماعها، ففيها تتجسد كل معاني الظلم، بأيّ ذنب قُتلتِ يا ياسمين؟إن لم نعرف الإجابة الآن، فسنعرفها يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعتْ وتضع كل ذات حمل حملها.

ياسمين... لن أتوانى لحظة عن البحث عن قاتلكِ وأن أجتثه جثًّا من على وجه البسيطة وأقتله ألف مرة؛ لأنه لم يقتلكِ أنت فقط بل قتلكِ وقتل أبًا حزينًا وأمًّا ثكلى، وقتل معنى الطفولة وقتل الحب؛ فالأطفال أحباب الله.

سأبحث عنكَ أيها الشيطان وأطوي الأرض طيًّا كي أجدك، أما أنتِ يا صغيرتي فلترقدي تحت التراب وعلى وجهك ابتسامة كأجمل ما تكون. من كان في استقبالك لتبتسمي له هكذا؟ أهُم رسلُ الله بيض الثياب بيض الوجوه؟ حتمًا هم، ماذا فعلوا مع روحك البريئة؟ هل طاروا بكِ طيرا ليعوضوكِ عن الألم الذي شعرتِ به عند مماتك؟ أم أخذوك إلى جنات وزروع وعيون ومقام كريم؟

ياسمين...أحببتُكِ بعد أن سمعتُ وقرأتُ عن حادثة موتك، طلبوا مني أن أكتب تقريرًا صحفيًّا عن هذه الحادثة، عن ماذا أكتب؟ وكيف ستخط يداي اسمكِ البريء؟! وبعد أن وقفت بعيدًا وأنا أراهم يوارونكِ التراب، لم أجد والدتك تقف بينهم، فسألتُ وعرفتُ أنها في المشفى بين الحياة والموت.

سأذهب إليك أيتها الأم، لا أعلم كيف سأواسيكِ، ولكني – وأثناء نومك –سأضع تحت يديك كتاب الله على آية قد تكون لك سكنًا ولألمك دواء.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)﴾.

أما أنت أيها الأب الحزين المكلوم، فلن ألقاكَ حتى أبحث في الأرض بحثًا لأعلم السبب وأجد القاتل، وأتيك قائلاً: " علمتُ الان لما قُتلتْ صغيرتُك".

أتمنى اليوم – إن استطعت ذلك– أن اخلد للنوم وأن أحلم بها، بياسمين، وألقاها لأسألها عن شيئين؛ الأول: "ما سر ابتسامتكِ يا صغيرتي؟" والثاني: "لماذا قُتلت يا حبيبتي؟".

لم أستطع النوم، فاتجهتُ إلى مكان الحادثة، ورأيتُ الدمية البيضاء وقد تحوَّل لونها إلى الأحمر القاني، بكيت وأنا أجلس على أطراف المكان، وأنا أرى دماءكِ الطاهرة التي لا تزال متجسدة على الأرض، حاولوا أن يمسحوها ولكنها أبتْ، بقيتْ لتكون شاهدًا على الكره الذي ملأ الأرض وأصبح مثل الهواء الذي نتنفسه، بقيت لتكون شاهدًا على الأرض التي أخلفنا الله عليها وسلمها لنا بريئة طاهرة لنرسم نحن فيها خريطة من الكراهية والألم والحروب، لن يسامحنا الله على ماضيعناه، ركنت بجسدي على جدار المرآب الحزين وعقلي غائب عن الزمان والمكان، أسمع صوت الرياح وهو يرتطم بجدران المرآب، أكاد أقسم أنه صوت بكاء، أجيء إلى هنا كل يوم منذ مقتلك ولايزال الصوت يتكرر، أتعلمين... لم أكن أشعر بالخوف، كان يعتصرني إحساس رهيب بالظلم والألم، وبينما كنت أحاول أن أخلد للنوم على أعتاب مذبحك، سمعتُ صوتًا يأتي من خلفي أرق ما يكون...

نظرتُ خلفي لأجدكِ..ترتدين ثيابًا بيضاء وتمسكين في يدك دمية شبيهة بدميتك القديمة ولكنها أجمل منها بكثير، تلفين على رقبتها وشاحًا زهري اللون، تبتسمين لي وتقولين: "عماه، لماذا تبكي يا عماه؟ لا تحزن، أنا الآن بخير حال، وقد علمت أنك تمنيتَ من الله أن تراني لتسألني عن شيئين!"

نظرتُ إليها وقلبي يخفق بشدة؛ ليس لخوفي مما أراه فمن المحتمل أني نائم بالفعل وأنه حلم وسأستيقظ منه بعد برهة، ولكنه خفق لرؤياها، فقد أحببتُها، هذه الطفلة البريئة ذات الشعر الذهبي والوجه الرقيق واليدين الصغيرتين والصوت العذب النقي.

انعقد لساني تمامًا أمام براءتها إلى أن قالت لي وهي تنظر في عيني وقد اختفت ابتسامتها: "عماه لا تحزن من كلامي، ولكنك كنتَ أيضًا سببًا في موتي هناك" ثم أشارت إلى مكان المذبح!

انعقد حاجباي فلم أفهم ما تعنيه.

"لم أفهم صغيرتي ما تعنين... كيف أكون أنا سببًا في مقتلك وأنا لم أركِ قبل موتكِ؟"

استدارت الصغيرة وذهبتْ بعيدًا عني، قمتُ من مكاني وناديتُ عليها.

- "غدًا نلتقي في المكان نفسه يا عماه."

ثم اختفت تمامًا بين عيدان النباتات كأنها امتزجت معها لتصبح عود قمح ذهبي اللون، ذهبتُ بعد وعد منها باللقاء في الغد، وقد حاولتُ النوم فلم أستطع، فلم أكن أتخيل أن أرى أحدًا قد فارقت روحه الحياة، ولم يخطر ببالي أن هذا من الممكن أن يحدث، لعلها رغبتي في أن ألقاها، أو لعلني أتخيل كل شيء... لا أعلم!

دارت في رأسي الأفكار وأنا أرقد على سريري.

- ماذا فعلتُ أنا كي أكون سببًا في مقتل هذه الصغيرة؟ يا الله ألهمني المعرفة، فلأصبر حتى يوم غد.. هل جننتُ؟ فيم أصبر؟ وفيم أنتظر؟ هل بالفعل قابلتُ شبحًا منذ قليل؟ فكرت أن أرفع سماعة الهاتف وأتصل بنبيل ولكني عدلتُ عن ذلك، وخلدتُ للنوم.

راودتني أبشع الكوابيس، رأيتُ طوال الليل أطفالاً تموت وتُقتل، والدماء تغرق يديَّ، لا أعلم ماذا حدث وماذ افعلتُ؟

استيقظتُ من نومي، واحتسيت مشروب الشاي المفضل لديَّ، لم أستطع في هذا اليوم الذهاب للجريدة فاتجهتُ بخطوات متسارعة إلى منزل ياسمين الذي يوجد خارج العاصمة، تركتُ علبة سجائري وقد تعمدت فعل ذلك، كنتُ أشعر أن جلال اللقاء مع هذا الملاك لا يليق به وجود السجائر، يومًا واحدًا دون الثلاث سجائر، ماذا سيحدث؟ وصلتُ البيت الساكن، اتجهتُ إلى المرآب الخلفي، وأخذتُ أنادي عليها ولكنها لم تظهر، كنتُ أخاف ألا تظهر لي مرة أخرى، رأسي يعج بعشرات الأسئلة.

شعرتُ فجأة أن صوت ما يطن في أذني وأن هناك شيئًا ما يداعب وجهي، نظرتُ حولى فلم أجد شيئًا، أحسستُ أن هناك نداءً خفيًّا يأمرني بأن أسير في اتجاه ما، أخذتُ أمشي على غير هدى، قادتني قدماي إلى الربوع الخضراء، وإذا بي أسمع صوت غناء عذب جميل يأتى من بعيد؛ فاتجهت لمصدره وقد هامت نفسي وتعلقت بصاحبة الصوت حتى وصلتُ لأراها تجلس بين الربوع والزرع الاخضر الذي يتراقص من حولها وهي تلاعب فراشة صفراء جميلة تطير حولها، وهناك حمامتان تقفان على مقربة منها تدندنان بصوت الهديل كأنها سيمفونية متتابعة تقودها ياسمين والطبيعة هي كورال تتبعها!

- "مرحبا ياسمين، السلام عليكِ."

نظرت إليَّ بعينيها البريئتين، قامت من مكانها وجرت نحوي وهي تضحك فرحة، وتقول:

- "عماه، ها قد جئتَ، انتظركَ منذ الصباح الباكر."

فرحتُ ورقص قلبي ويداها الجميلتان تلتفان حول ساقي، جلسنا أرضًا وقلت لها:

"كيف حالك صغيرتي.. وكيف أصبحتِ؟"

ردت عليَّ وهي تنظر إلى السماء وتغلق عينيها وتستنشق الهواءالعليل:

- "بخير حال.. أصبحت أثني على ربي حمدًا، وأشهد أن لا إله إلا هو."

تعجبتُ ونظرتُ إليها وانا أضع يدي على وجهها البريء.

- "كيف أصبحتِ بهذه الفطنة بُنيتي؟"
- "تعلمت الكثير والكثير على يد ربي."
- "وهل ستجيبين عن أسئلتي؟"
- " بقدر استطاعتي عماه!"
- "لماذا قلتِ البارحة إني كنتُ سببًا في مقتلكِ؟"

نظرتْ إليَّ الصغيرة وقد اختفت ابتسامتها، وقامت من جانبي وذهبتْ بعيدًا، وجلستْ وحيدة تبكي، نظرت إليها من مكاني وقلبي يعتصره الألم والحزن أن أكون سببًافي بكاء هذه الرقيقة، لا أعلم ماذا أفعل لأهوّن عليها؟ وماذا فعلتُ أنا لأكون سببًا في مقتلها؟

ذهبتُ إليها أجرُّ رجليَّ جرًّا، وجلستُ بجانبها واحتضنتُها.

- "بنيتي، إني أحبك والله، ولو كنتُ أعرفكِ قبل مقتلكِ لكنتُ حنونًاعليك رفيقًا بكِ؛ فلماذا تخبريني بأني السبب في مقتلكِ؟"

نظرتْ إليَّ وهي تكفكف دموعها، وقالت: "عماه لقد ظلمتني بظلمك لنفسك، لقد نشرتَ أنت ومن مثلك من البشر الظلم في هذه الأرض، وأصبح الظلم في كل مكان، ومات ملايين البشر، وقامت أبشع الحروب، وقُتل ملايين الأطفال وذُبح كثير منهم، وأصبح الظلم مكونًا رئيسًا كالشمس والقمر... فجعل الله ذبحي أنا ومثلي من آلاف الأطفال – أنتم تقولون إنه بلا سبب –إشارات أن الظلم انتشر لتكفوا عنه، فقد وصل الظلم حتى لذبحنا نحن الأطفال بدون سبب، عماه، لقد قررت أن آخذكَ معي لترى بنفسك أسرار الكون وأسرار الزمن، سأريكَ ما أبكَى عيونًا كثيرة وتناسته العقول حتى قست القلوب.

قم يا عماه، وأمسك بيدي... سنذهب سويًّا لرحلة أريدكَ أن تستعد لها جيدًا، وعِدني ألا تخاف، فما ستراه قد يشيب له شعر رأسكَ، ويهرَم له جلدك، ويخرس به لسانكَ، أريدكَ عماه أن تعد قائمة كبيرة تسجل فيها ما تراه، وتتذكر معي مآسي الحاضر والماضي، لتخبر عنها بني جنسك حتى لا ينساها البشر، فلتبلّغ عمي عن كل دمعة أم ثكلى وأب مكلوم، فلتبلغ ولا تخف حتى نقتص من الجلاد وترتاح الأرواح!"

ذهبتُ معها في هذه الرحلة المخيفة وبالفعل شابَ شَعري ممارأيتُ؛ فما رأيتُه صعب الوصف والتصديق، ولن أستطيع أن أحكي عما شاهدته، فمن الواضح أني سأمضي ليالي طويلة أملأ القائمة التي لن تنتهي، إن الظلم قد انتشر انتشار النار في الهشيم فأصبح سببًا في مقتل ياسمين بلا سبب. وقد عاهدتُ نفسي وعاهدتُ ياسمين أني سأنتقم لها، ولكني الآن خائف؛ فالجناة ليسوا شخصًا واحدًا بل آلاف الأشخاص.

سأدون الآن ما رأيته...

يا إلهي ألهمني القدرة على التحمل!

(3)

عبير

(قبل أربعة أشهر)

- "ياسمين، كيف حالك صغيرتي؟"

نظرتْ إليَّ برقتها المعهودة وابتسمت.

- "بخير حال ياعماه."

- "ماذا تفعلين يا بنيتي؟"

- "لا شيء، كنتُ ألعب قليلاً مع الفراش."

ابتسمتُ وأنا أراها تجلس على الحشائش الخضراء وتلعب مع الفراشات والأزهار اليافعة.

- "ياسمين، أنا مستعد للرحلة الآن يا صغيرتي."

نظرتْ إليَّ نظرة كلها حزم قائلة: "هل أنت واثق من ذلك، وأنك لن تندم أبدًا؟"

تعجبتُ قائلاً: "بالطبع واثقٌ من ذلك!"

أجابتني مقاطعة "عماه إن الحديث شيء ورؤية العين شيءآخر."

ثم اتجهت إليَّ واضعة يدها الصغيرة في يدي وقالت: "إني أخاف عليك!"

ضحكتُ وأنا أرتكز على ركبتي كي أقبلها على وجنتيها.

- "حبيبتي لا تخافي، فلنبدأ على بركة الله."

ابتسمتْ وهي تأخذ يدي وتقول: "على بركة الله!"

لم أعرف كم استغرقت الرحلة، ولكني شعرتُ براحة غريبة تملأني وتغمرني كأني طفل رضيع يتلمس الحياة، شعرتُ بفراغ نسبي حول جسدي، وكأني أطفو بلا طوق، أو أطير بلا جناحين، شاهدتُ أشياء غريبة، وبدا لي الكون صغيرًا، ثم بدأ يكبر شيئًا فشيئًا بسرعة متناهية، أدركتُ بعدها أنه لا يكبر ولكننا نسقط باتجاهه. زادت سرعة الهبوط والسقوط حتى وقع قلبي في قدميَّ، أحسستُ أنها النهاية وأنا أقترب من الأرض بسرعة هائلة، وعزائي الوحيد أن يدي كانت تمسك بيد ياسمين التي لم تكن تبالي على الإطلاق وكأنها في نزهة خلوية.

أحسَّتْ بي فأمسكتْ يدي بإحكام وربتت عليها لتطمئني، وقبل الاصطدام بالأرض توقف كل شيء، كأني أسبح في الهواء، ثم تغيرتْ المعالم من حولي، وجدتُ أمامي ثقبًا أسودا مخيفًا، نظرتُ إلى ياسمين وقد انتزعت هذه الأخيرة يدها من يدي، وأشارت لي بأن أدخل إلى الثقب الأسود.

- "ألن تدخلي معي؟"
- "لا أستطيع!"

ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عني.

- "لماذا يا بنيتي؟"
- "لن أتحمل ما ستراه أنت."

ابتلعتُ ريقي وسكتُّ، فقالت: "عماه، إن رغبتَ في عدم الدخول، نستطيع العودة مرة أخرى لعالمكَ، ولكن لا تطلب مني الدخول إلى هنا مرة أخرى."

أخذتُ أفكر أني أريد الدخول، ولكن الخوف يمنعني، أشعر أن وراء هذا الثقب عالما أسود ووحوشًا مخيفة، الفضول يقتلني، أريد أن أعلم سر مقتل ياسمين، ولماذا اختارني الله كي أكتشف هذا العالم، عالم الموتى وعالم الظلم؟

نظرتُ إلى الثقب وانعقد حاجباي محاولاً إدخال الثبات إلى قلبي، وقلتُ في نفسي:"حسبي الله ونعم الوكيل، توكلتُ على الله". ثم قلتُ لها ناظرا للثقب: "سأدخل يا ياسمين... سأدخل!"

اتجهتُ بخطوات ثقيلة إلى بوابة العالم المجهول "عماه، إذا أردت الخروج نادِ عليَّ، واحذر السهم الأحمر!"

نظرتُ خلفي لأسألها عن معنى السهم الأحمر، ولكنها كانت قد اختفت تمامًا، كان الفضول يقتلني قتلاً كي اكتشف ماذا يوجد وراء الثقب، سمعتُ صوت خطواتي بوضوح وأنا أمشي في ممر مظلم، لم أسمع شيئًا إلا صدى خطواتي، ودقات قلبي تعلن أن الخوف قد سيطر عليه تمامًا.

رأيت أمامي ضوءًا يأتي من بعيد، لأجد نفسي فجأة داخل بيت ما، نظرتُ حولي وقد اختفى الممر المظلم، استجمعتُ قواي وأخذتُ أردد اسم الله (العظيم) وأنا أدور حولي متفقدًا المكان على الضوء البسيط الذي يأتي من الشباك المغلق بألواح الخشب، من الواضح أن الليل لم يحل بعد، ولكن البيت كان مظلمًا؛ فالنوافذ جميعها كانت مغطاة بألواح من الخشب إلا من بعض الفرجات البسيطة التي سمحت للضوء بالتسلل إلى داخل البيت المخيف، كان البيت قاتمًا نوعًا ما يصيب من يراه بالرعب والاشمئزاز، أشعر بأن حولي ألف شيطان، من الواضح أنه بيتٌ مهجورٌ يتكون من طابق واحد، أخذت أدور حول نفسي قليلاً وأنا لا أعرف كيف أني من المفترض أن أكتشف في هذا البيت جزءًا من الحقيقة؟ مرت من أمامي فتاة صغيرة وهي تجري بسرعة، فالتفتُّ إليها لأجدها قد اختفت، ثم أجدها مرة أخرى تجري من خلفي وتُصدر ضحكات طفولية بصوت غريب، حاولتُ الإمساك بها ولكنها أخذت تدخل من غرفة لأخرى، حتى دخلت غرفة ولم تخرجمنها؛

فاتجهتُ إلى تلك الغرفة وأنا أفتح الباب الذي أصدر صريرا مزعجًا، وجدتها تجلس في زاوية الحجرة وتلعب بدمية في يديها وتنظر إليَّ وتبتسم، وعلى الضوء الخفيف استطعتُ أن أرى معالم وجهها وجسدها، شعرتُ أن هناك شيئًا ما فيها مختلفًا، لا أعرف كنهه، كأن هناك ماءًا رطبًا على جسدها، اقتربتُ منها، بدا لي أنها لم تتجاوز بعد التاسعة من عمرها.

– "من أنتِ؟"

سألتها، ولكنها لم ترد، ولم تنظر إليَّ؛ إذ استمرت في اللعب كأنها لا تسمعني، جلستُ أرضًا بجانبها.

- "ما اسمكِ؟"
- "اسمي هديل"... قالت هذه الجملة بصوتها الطفولي.
- "ما قصتكِ ياهديل؟"

توقفتْ عن اللعب بدميتها ثم وقفتْ، وأشارتْ بيدها لركن آخر في الغرفة المظلمة، وقالت:"انظر هناك، وستعرف ماهي قصتي!"

نظرتُ إلى حيث تشير فصعقتُ ورجعتُ للخلف، حين رأيتُ فتاة في الخامسة عشرة من عمرها مصلوبة على الحائط، والصلب من مكان عفتها، ويداها وقدماها مقيدتان، ووجهها محترق تمامًا وهي تبكي!

توجهت إليها قائلا: "كيف أساعدكِ؟"

نظرتْ إليَّ وصرختْ صرخة لم أسمع مثلها قط، فاقشعرَّ بدني وانتصب شعر رأسي، وجريتُ خارج الغرفة بعد أن نصحتني هديل الصغيرة أن أتركها، وجدتُ نفسي في صالة البيت وقلبي ينتفض في عنف، ووجدت (هديلاً) بجانبي تبكي، فقلت لها: "بالله عليك أخبريني من أنتِ؟ ومن هذه الفتاة المصلوبة؟"

نظرتْ إليَّ الصغيرة، وقالت: "سأقص عليك كل شيء... وبالتفصيل".

الأم: "عبير!"

عبير: "نعم يا أماه"

الأم وهي تمسك بيد ابنتها وتضع الأخرى على وجهها: "أخاف عليك حبيبتي من أولئك الجنود، كلما ذهبت خارج البيت أراهم ينظرون إليك...لعنهم الله!"

- "ألاحظ هذا يا أمي، ولكن ماذاعساي أن أفعل؟"
- "تحدثتُ مع أبيك في هذا الأمر، وقد اتفقنا أنك يجب أن تذهبي عند جارناالطيب لتمكثي بعض الوقت في بيته القريب منا، فنحن نخاف عليكِ من غدر الجنود، وخاصة أنك قد بلغت الخامسة عشر."
- "كما ترين يا أماه!"

وعلى الناحية الأخرى من المنزل، وعلى بعد خمسة عشر مترًا، كان هناك خمسة من جنود الاحتلال يقودهم مجند المارينز (ستيفن غرين)، ومن الواضح أنهم يخططون لشيء ما فقد مر عليهم أسبوع كامل وهم يتواجدون في ذلك المكان يراقبون تلك الفتاة الصغيرة كلما خرجت، ولاأحد يعلم ماينوون فعله.

ستيفن: "هل أحضرتَ ما طلبتُه منكَ؟"

أحد الجنود: "نعم إنه السائل سريع الاشتعال!"

ستيفن: "جيد... كل واحدمنكم قد علم دوره؟"

جندي آخر: "بالتأكيد، بالنسبة لي سأراقب المكان خارج البيت، وسأكون على اتصال بكم، ولكن متى ساعة التنفيذ؟"

ستيفن (وهو يشرد بعينيه حيث تقف الفتاة في شرفة المنزل): "غدًا ظهرًا!"

أحد الجنود: "هل جننتَ يا رجل؟ ستنفذ المخطط في وضح النهار؟!"

ستيفن: "نحن ملوك الكون نفعل ما نشاء في أي وقت،أما هم، فالكلاب، يحق لنا فعل أي شيء فيهم حتى لو كان ذلك هو قتل أطفالهم جميعًا، فأطفالهم يا رجل ليسوا مثل أطفالنا، هم مجرد حشرات يملئون الكون بلا داعٍ... ونحن سنكون المبيد لهذه الحشرات!"

ثم أخذ يضحك كشيطان مارد وأصدقاؤه يتعجبون من أين أتى بهذا الدهاء والحقد على الرغم أنه لم يتجاوز الواحدة والعشرين من عمره؟

أما الأم والأب اللذان كانا يخافان على ابنتهما فكانوا يظنون أن الغدر والقتل يتم ليلاً، وأن قواعد الشر تتنافى مع سطوع النهار، ولم يدركان أنهما كانا على خطأ كبير، كانوا قد انتقلوا لهذا البيت مؤخرًا وقد ساورهم القلق من وحدة المارينز الأمريكية التي تبعد عنهم أمتارًا قليلة.

- "لماذا توقفتِ؟"

قلتُ لها هذه الجملة وقد توقفت هديل عن الكلام، لكنها لم ترد عليَّ، اقتربتُ منها وقد رأيتُ أن جسدها لا يزال مبللاً، وضعت يدي على ملابسها لأرى سر ذلك البلل، نظرتُ إلى يدي فوجدت – وأنا أحاول أن أتبين بصعوبة ما أصابها – أنها دماء!

الآن رأيتُ جسدها بوضوح وقد ذهبت غشاوة الظلام من أمام عينيَّ أن جسدها ينضح بالدماء، فرجعتُ خلفًا وأنا خائف، ونظرتُ حولي فوجدتُ البيت يمتلئ بالدماء، الحوائط ملطخة هي الأخرى، الدماء في كل مكان، عرفتُ الآن لماذا شعرتُ بالنفور منذ اللحظة الأولى التي دخلتُ فيهاإلى ذلك البيت.

نظرتُ إلى هديل مرة أخرى فوجدتها مصابة على الأقل بثلاث طلقات نارية في كتفها وصدرها وهي التي لم تتجاوز بعد التاسعة من عمرها!

اختفت هديل وتغيَّر منظر البيت من حولي كأنه عاد لسابق عهده، يغمره الضوء، ويعج بالحركة، البنت المصلوبة تجلس مع أبيها وأمها في صالة البيت حيث أقف ويضحكون وهم يتناولون الطعام، وهديل الصغيرة تجري وتلعب...

قلت لهم:"السلام عليكم!"

ولكن أحدًا منهم لم يرد، من الواضح أني سراب لا يروني، سمعتُ فجأة صوتًا مزعجًا، ثم وجدتُ باب البيت يُفتح عنوة، وعبير تسأل أباها:"ماذا هناك يا والدي؟" فردعليها فزعًا:"لا أعلم، هيا بنا لنختبئ جميعًا في الحجرة، بسرعة يا هديل تعاليْ معنا!"

وجدتُ الأب يسرع مع زوجته وابنتيه إلى داخل الغرفة، وهناك أربعة من جنود المارينز يدخلون المنزل وقد تجاوزوني كأني سراب والخامس ينتظرهم خارجه، أخذ الأربعة يفتشون المنزل، أما ستيفن فانفصل عن الثلاثة الباقين ودخل إلى الغرفة التي يختبئ فيها الأب مع بناته وزوجته، سمعتُ طلقاتٍ نارية تتعدى الخمس عشرة طلقة داخل الحجرة، بعدها خرج ستيفن، فسأله أقرانه: "ماذا حدث؟"

فرد مبتسمًا: "قتلتهم جميعًا... ما عدا الفتاة!"

فرد عليه أحدهم: "جيد، أحضِر الفتاة إلى هنا."

انعقد لساني، وخفق قلبي وأنا لا أصدق ما يحدث، دخلتُ إلى الحجرة فوجدتُ الأب وقد ضُرب بالرصاص في رأسه بأربع طلقات وقد تهشم رأسه تمامًا، والأم قد أرديت بأربع رصاصات في صدرها وثلاث في بطنها، والطفلة الصغيرة هديل ضُربتْ بثلاث رصاصات في كتفها وصدرها، والدماء تملأ الغرفة، وقد أخذتُ في الصراخ والهياج وأنا أحاول أن أمسك بجسد الصغيرة، ولكن صوتي لم يتجاوز مكاني!

لاحظت أن عبيرًا ليست موجودة، فهرعتُ إلى بهو المنزل أصيح بأعلى صوتي كالمجانين: "ماذا فعلت أيها الكلب الدنس؟ ماذا فعلتَ؟!!!!"

ولكني توقفتُ واتسعتْ عيناي عندما وجدتُ عبيرًا مقيدة اليدين والرجلين، وقد رفعوا عنها ثوبها وتناوبوا على اغتصابها في وضح النهار، فقفزتُ من مكاني وأنا أصرخ: "أيها الكلب الأمريكي.. أيها الكلب الدنس!"

كنت سرابا، لا حول لي ولا قوة، أخذت أصيح وأنا أراهم يفترسونها، تلك الفتاة العراقية ذات الخمسة عشر ربيعًا!

أخذتُ أبكي وأصرخ، أحاول الانقضاض عليهم ومنعهم فلم أستطع فعل شيء، صرختُ بأعلى صوتي... "يا أمة العرب! أين أنت يا معتصم؟!"

أدرتُ وجهي وودفنته في يدي وأنا أسمع تأوهات وصرخات المسكينة وهم لا يرحمون توسلاتها، لا أفهم شيئًا، كيف يجرئون على قتل أبيها وأمها وأختهاالصغيرة بلا رحمة والآن يغتصبونها وجثث أسرتها في الحجرة المجاورة! أخذتُ أبكي حسرة، وقلبي يعتصره الألم من الظلم، أدرتُ وجهي إليهم وقد انتهوا من فعلتهم الدنيئة، ثم اتسعت عيناي حتى كادتا تخرجان من مكانهما وأنا أراهم يضربونها على رأسها بآلة حادة لتموت ثم يفرغون طلقاتهم في جسدها، وأحدهم يقوم باغتصابها بعدما ماتت وهي تسبح في دمائها!!

صرت أحدثُ نفسي قائلاً، ما هذا؟ أي فعل شيطاني هذا؟ توقفتْ دموعي، فلم يعدلديَّ أيا منها بعد، فأخذتُ أعض على شفتيَّ حتى أدميتهما، بعد أن رأيتُ ستيفن الكلب يأتي بالسائل سريع الاشتعال ويصبه على جسدها ويشعل فيها النيران كي يخفي اثار جريمته!

رأيتُ هذا بأم عيني وأنا أقف متفرجًا، أشاهد أختي العراقية (عبيرًا) تُنتهك حرمتها هنا في بيتها، يفترسونها في عقر دارها، مكثتُ واقفًا أسبح في ذهولي، فلم يخطر ببالي أبدًا أن هناك إنسانًا ما – إن استطعتُ أن أطلق عليه هذا الوصف– يستطيع فعل ذلك.

وجدتُ الجناة يخرجون من البيت ويقفون مع الجنود الذين حضروا بعدما سمعوا صوت الرصاص، ويقولون للناس ولخال الفتاة الذي أتى على الفور إن هذا من فعل (القاعدة)، ثم رأيتُ الجار الطيب يدخل إلى المنزل بعد أن استأذن القوات الأمريكية المحيطة بالمنزل ليرى البنت ملقاة على الأرض وثوبها مرفوع عن جسدها ويداها وقدماها مقيدة، والنار تمسك فيها فعلم على الفور أنها قد اغتُصبت، أطفأ النار المشتعلة في جسدها فوجد أن وجهها وصدرها قد احترقا تمامًا وقد فاضت روحها، ووجد في الحجرة المجاورة جثث أبيها وأمها وأختها الصغيرة، والدماء تسيل من هناك حتى تصل إلى جثة عبير، كأن الأب والأم قد تحولا إلى ذراتٍ في تلك الدماء تريد أن تزحف وتلامس جسد الفتاة... أو ما بقي منه.

رأيتُ كل هذا بأم عيني وقلبي يعتصره الحزن، صدقتْ ياسمين عندما قالت إن شعري سيشيب ويهرم جلدي من هول تلك الرحلة.

آه يا عبير اغتصبوك ونحن نشاهدهم، أتوا ودخلوا إليكِ وقتلوكِ واغتصبوكِ، واغتصبوا بلدك، وأحالوا البلد إلى فوضى، علمتُ الآن أن قاتل ياسمين كان أكثر رحمة من هؤلاء القوم؛ فقد قتل ياسمينًا دون أن يعذبها وقد فاضت روحها دون ألم، أما عبير فقتلها قاتلها ألف مرة قبل أن يذبحها ويحرقها، قتلها وهي تشاهد أسرتها تُذبَح، وهي تشاهد عفتها تنتهك مرارًا وتكرارًا، نظرتُ حولي لأرى البيت يعود كما كان قاتمًا ومخيفًا، ذهبتُ للحجرة حيث الفتاة معلقة ومصلوبة في مكان عفتها، ولا تزال تصرخ وتتأوه.

- "ياسمين!"

صرختُ باسمها كي تأتي وتأخذني، جاءت الصغيرة وأمسكتْ يدي، وعُدت معها حيث الربوع الخضراء.

- "عماه، ردّ عليَّ، ماذا بكَ؟"

كانت تكلمني وأنا أبكي بلا صوت ولا أرد، حتى التفتُّ إليها قائلا:

- "لِمَ فعلتِ بي هذا ياصغيرتي؟، لِمَ قتلتِني ألف مرة وأنا حيٌّ أُرزَق؟؟"

- "عماه، لقد أخبرتكَ قبل أن نذهب، فهذا هو ثمن المعرفة، فإن عرفتَ فالزم!"

نظرتُ إليها بعينيَّ الباكيتين وأنا أقول: "ألزم ماذا؟ أشعر أني سبب في مقتل عبير ومقتلكِ، لقد أدركتُ الآن ماذاكنتِ تقصدين بأنني أكون سببًا في مقتلك.... لن يسامحني الله أبدًا!"

- " سيسامحك."

نظرتُ اليها باهتمام قائلاً: "كيف ذلك بنيتي؟"

- "عماه، ألستم حماة مستقبلنا أنت ومن هو مثلك من الشرفاء الذين لم يبيعوا أنفسهم ولا ضمائرهم؟"

قلت لها وقد توقفت دموعي: "ولكن، ماذا فعلنا؟ سكتنا عن الظلم سنوات وسنوات."

- "أنا على ثقة أن النصر قريب، وأنكم ستكونون نواة التغيير، وأنكم ستنهضون ببلادنا وتصنعون المستحيل، وأناأطلب منك عماه عندما تقودون العالم بالعلم والتكنولوجيا، وتصبحون قوة عظمى كما كنتم قبل مئات السنين كمسلمين وعرب، أن تذكروا (عبيرًا) وتذكروني وأن تجدوا الجناة، وتعاقبوا كل ظالم قد بطش بنا أو كل قاتل قتل طفلاً أو كل مغتصب اغتصب ما لا حقَّ له فيه، عندما تملكون العالم افتحوا كل الملفات وحاسبوا الجميع دولاً كانوا أوأفرادًا، أما الآن يا عماه فأنتم لا تملكون لنا إلا ثلاثة أشياء."

- "ما هي يا صغيرتي؟"

- "أولها الدعاء... ادعوا لعبير وأهلها وكل أهل العراق وفلسطين وكل بلادنا المسلوبة.. ادعوا لهم بالنصر والتمكين والصبروالتهوين. ثانيها أن تغير ما بنفسك عماه؛ فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ثالثها هي النهضة، أتقِن عملك وربّ أبناءك على نهضة بلادنا... وخذ هذا!"

- "ماهذا الأنبوب الصغير الذي تعطيني إياه؟"

- "إنه أنبوب المعرفة والأسرار، لا تفتحه إلا عندما تقودون العالم وتنهضون ببلادنا، عندما تنجحون في ذلك افتحه وستجد به كل الأجوبة والأسرار كي تنتقموا من كل ظالم وكل قاتل."

جلستْ أرضًا وأخذتْ تنظر للأزهار حولها ثم رفعتْ رأسها وقالت:

- "عِدني أنك ستنفذ ذلك!"

قلتُ دون تفكير: "أعدكِ يا ياسمين أن أفعل كل ما طلبته مني!"

أخذتُ أقلب الأنبوب بين يديَّ، ثم قلتُ: "بنيتي، أنا ماضٍ في طريقي، لن أستطيع أن أراكِ مرة أخرى إلا بعد أن أغير من نفسي وسلبيتي، سأحاول أن أتغلب على ما عانيته في تلك الرحلة، وعندما آتى إلى هنا مرة أخرى ستعرفين عندها أني مستعد للارتحال مرة أخرى لعالم الظلام."

- "عماه، لا تُطِل الغياب فأنا هنا وحيدة."

قبلتُها ثم قلتُ: "لا تخافي، سآتي قريبًا، ولكني أريدكِ أن تأخذيني يومها لرحلة أقل ضراوة وظلمًا، فقد عانيتُ الكثير في هذه الرحلة.

- "ما بيدي حيلة، بلادنا كلها ظلم ومآسٍ، فالعالم أصبح غابة كبيرة."

ابتسمت وأنا أقول: "بالفعل ما باليد حيلة، سآتيكِ قريبًا بعد أن أستجمع قواي؛ فكما قلتِ أنت أن الألم ثمنٌ للمعرفة، وأن العالم قد أصبح غابة كبيرة!"

(4)

إيفيلين

(قبل ثلاثة أشهر)

استيقظتُ في ذلك اليوم متأخرًا لأجد عشرة اتصالات على هاتفي المحمول من رئيس التحرير، مر الآن شهر كامل منذ لقائي بياسمين، تغير حالي تمامًا في تلك الأيام القليلة، استطاعت ياسمين أن تفعل ما لم تستطع زوجتي – رحمها الله – فعله، أقلعتُ عن التدخين نهائيًا، كلما أتذكر تلك العادة الغريبة والثلاثة سجائر أضحك على نفسي، أصبحتُ شعلة نشاط، تقاريري اليومية زادت، ومقالاتي أصبحت نارية، أتذكر ذلك الاتصال من قارئة صغيرة اتصلت بي وقالت إنها تتابع يوميًا مقالاتي وسألتني إن كانت قصة عبير العراق حقيقية وعندما أخبرتها أنها كذلك أخذتْ تبكي، أخبرتني أنها تخاف أن يحدث لها ما حدث لعبير، وأنها منذ قراءة ذلك المقال لا تستطيع النوم، وأنها المرة الأولى التي تسمع فيها بهذه الحكاية، أخبرتها أنها قديمة جدًّا مرَّ عليها حتى الآن ثماني سنوات ولكننا ننسى سريعًا.

ذهبتُ إلى العمل متأخرًا كالعادة، انهمكتُ في العمل لمدة أربع ساعات حتى حان وقت راحتي، نزلتُ للطابق السفلي كي أتناول وجبة غدائي في مقصف الجريدة، كدتُ أهمُّ بالأكل حتى تذكرتُ (عبيرًا)، دعوتُ لها وأهلها، ثم تذكرتُ ياسمينًا... كم أشتاق إلى لقائها، تلك الفتاة، سري الأعظم! أريد أن أخبر (نبيلاً) بقصتي معها ولكن شيئًا ما يمنعني، هل سيكون عدم تصديقه لي أني أقابل شبحًا هو السبب! وجُلَّ همي الشاغل الآن أن أخبر الجميع أن الوقت قد حان لننسى الهموم ونبدأ العمل ونبدأ النهضة وندرأ الظلم عن المستضعفين في بلادنا وكل بلاد العرب، وأن نلقي بالنظام البائد في مزبلة التاريخ كي نتحرر من الذل والعار، وكلما سارعنا في النهضة كلما سارعنا في إنقاذ طفل ما من القتل أو أُمًّا من الموت أو فتاة من الاغتصاب أو شابًّا من الأسْر أو رجلاً من التعذيب أو قرية من الحرق أو بلدًا من النهب أو أمة من الدمار، أريد أن أخبر الجميع أننا لو اتحدنا جميعنا الآن على أن نقوم بالنهضة فسنقوم بها بالتأكيد كما فعل أقراننا في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية، كانت بلادهم مليئة بالدمار والخراب، بدأوا يبنون بلادهم من جديد بطوب وحجارة الأبنية المتهدمة جرَّاء الحرب، أقاموا المصانع وأخذوا يعملون ليلاً ونهارًا واضعين أمامهم هدفًا واحدًا– حلم النهضة – أريد أن أصيح بأعلى صوتي وأصرخ في كل شارع أن هلمُّوا بنا لنبدأ أسطورتنا الشخصية، لنبدأ حلمنا، أنهيتُ طعامي وتوجهتُ إلى مكتبي مرة أخرى وجلستُ أمام جهاز الحاسوب الخاص بي أحاول أن أنهي المقال الذي أعمل عليه، شيءٌ ما يحول بيني وبين الكتابة، شهر كامل وأنا أكتب المقالات وأعد التقارير بلا توقف، لا شيء يمنعني، حتى الاتصال الغامض الذي هددني صاحبه بالتوقف عما أكتب وأن أتوقف عن فتح الملفات المغلقة، قد تكون جهة أمنية أو لعله واحدٌ من اللصوص الأغنياء، ولكني عاهدتها ألا أتوقف عن كشف الحقائق، أدركتُ الآن ما أحتاج إليه، حتمًا إنه نداؤها الخفي يمنعني عن الكتابة، يريد مني الذهاب إلى مزرعتها المهجورة.

تركت الجريدة سريعًا وقد تلاحقتْ أنفاسي، في الطريق تذكرت (عبيرًا)، إحساس بالظلم والقهر يملأ جوفي، جعلني أتوقف على جانب الطريق وأنزل من سيارتي لأخرجَ ما في بطني، هل أعود مرة أخرى لياسمين لأذوق أهوال رحلاتها؟

ركبتُ سيارتي وأكملتُ طريقي، لا تزالين في عقلي أنت وكل بنات العرب المغتصَبات، أتذكر أيام حرب البوسنة والهرسك وما قرأتُه في تقارير المراسلين الأجانب وحقوق الإنسان، أنه في تلك الحرب اغتُصبت خمسون ألف امرأة، عشرة آلاف منهن أصبحن حوامل من جنود الصرب السفاحين الملاعين، كان هؤلاء الجنود يختارون البنات في عمر الزهور، العذارى منهن، قرأتُ مرة أن جنود الصرب بقروا بطن أمٍّ حامل وأخرجوا الجنين وشووه على النار ثم أجبروا الأب على الأكل من لحم الطفل المحروق، ثم قتلوا الأب والأم !

يا إلهي، كل يوم أجد معنىً جديدًا في مقتل ياسمين، كأن موتها لا يساوي شيئًا فيما حدث ويحدث في كوكبنا الملعون كل يوم، كان جنود الصرب يبقرون بطون الحوامل ويخرجون الطفل الصغير أمام عين أمه ويذبحونه بسكين بارد ثم يقتلون الأم، ومحظوظة هي الأم التي يقتلونها، فعذابها ينتهي بمجرد موتها، أما التي تعيش وأمامها جنينها التي كانت تنتظره لحمًا ميتًا وبطنها مفتوحة تخرج دمائها وأمعاؤها، وزوجها مقتول بجانبها، ماذا تفعل؟ هل تعيش بعد ذلك؟ لا أعلم، هل تنهي حياتها لترتاح أم تصبر لعله في يوم من الأيام وهي عجوز على فراش الموت تبتسم ابتسامة قد غابت عنها عندما تسمع بأن الجاني قد اقتص منه، يومها ستنسى هذه الأم ألمها وحزنها ويبتسم وجهها وترتاح روحها قبل أن تصعد إلى بارئها.

وصلتُ للمزرعة، ركنتُ سيارتي واتجهت إلى الربوع الخضراء، المكان الذي أبوح فيه بهمّي وأرتاح حيث توجد حبيبتي، سآخذها في حضني وأبكي، كان الجو أجمل ما يكون في هذا المكان، أخذتُ أنادي عليها، العيدان الخضراء تتراقص من حولي كلما ذكرت اسمها، ولكن ما من مجيب، أخذتُ أدور حول نفسي كالمجنون وأنا أنظر في كل اتجاه لعلي أجدها، انحرتُ أرضًا وقد ضاق صدري وتلاحقتْ أنفاسي، كان صدري يعزف مقطوعة من الألم، وفجأة سمعت من فوق رأسي صوتًاعذبًا في عذوبة قطرات المطر الخفيفة التي تسبق السيل.

- "عماه!"

نظرتُ إليها، عادت الحياة إلى صدري، تضحك فيفتغر ثغرها عن أسنان بيضاء كاللؤلؤ الناصع ، كانت تقف على سحابة بيضاء قد اقتربتْ بها من الأرض.

- "اصعد ياعماه... اصعد معي!"

أنستني رؤيتها وهي تقود تلك السحابة الصغيرة ألمَ صدري، بالتأكيد إنها توابع إقلاعي عن التدخين.

- "كيف أصعد؟"

- "مُد إليَّ يدكَ، وأغمِض عينيكَ."

على الفور فعلتُ ذلك، مرت دقيقتان وأنا على هذا الحال، حتى سمعتُ صوتها العذب في أذني، وشعرتُ بأنفاسها وهي تقول: "افتح عينيك عماه، قد وصلنا."

فتحتُ عينيَّ فوجدتُ نفسي أقف معها على السحابة البيضاء وحولنا السحب في كل مكان، والجو بارد جدًّا، أعطتني الصغيرة معطفًا أبيض لأرتديه، وضعتُه على كتفي وأنا أنظر حولي وأبتسم كالأطفال، وصلتْ السحابة بنا لأرض داكنة ترابية الشكل، نزلت هي من السحابة لتلمس قدماها الأرض ثم مدت إليَّ يدها وقالت: "هيا بنا"

أخذنا نمشي سويًّا، كل ما شاهدته حولي أثار الدهشةَ بداخلي.

– "أين رحلة الثقب الأسود؟"

– " ليس اليوم عماه، فأنا أعلم حالك جيدًا، ونحن نريدكَ قويًّا بما يكفي عندما تعبر الثقب الأسود كي تستكمل الرحلات تباعًا وتنفذ ما هو مطلوب."

أقنعتني حجتها، ولكن شيئًا ما استوقفني في حديثها... لقد قالت الصغيرة "نحن"، من تقصد بنحن؟ ومن يريدني غيرها أن أعبر الثقب الأسود؟ وهناك أيضا شيء ما مطلوب مني أنا بالتحديد كي أنفذه؟ أسئلة كثيرة تجوب عقلي ولكنها لم تتجاوزه لتصل إلى لساني.

- "ماذا بكَ عماه؟ فيم الشرود؟"
- "لا عليكِ... هيا بنا."

مشينا سويًّا نجتاز ذلك السهل الترابي، ملمسه يصيبني بالخوف والطمأنينة في الوقت نفسه، كنتُ أمسك بيدها التي شعرتُ أنها تزداد برودة كلما توغلنا في ذلك السهل، توقفتْ ياسمين ثم أشارت لي بأن أتجه لذلك التل الكبير، نظرتُ حيث أشارتْ لأجد تلاًّ مهيبًا لونه كلون الرماد اللامع، مضيتُ وتركتها.

- "احذر عماه من السهم الأحمر!"

نظرتُ خلفي لأسألها عن السهم الأحمر، ولكنها كانت قد اختفت تمامًا، مضيتُ في طريقي إلى أن وصلتُ إلى ذلك التل الرمادي، درتُ حوله لأرى شيئًا غريبًا بحق، وجدتُ الكثير والكثير من الأطفال الصغار يلعبون، آلاف منهم تتراوح أعمارهم ما بين الثانية والعاشرة، ووجدتُ أيضًا أطفالاً رضعًا، وآخرين يحبُون، من يعتني بهم يا ترى؟ رأوني من بعيد، توقفوا عن اللعب وأخذوا ينظرون إليّ في حذر وأنا أمر بجانبهم، فجأة وجدتُ جماعة منهم هبُّوا من أمكانهم وأخذوا يتقافزون وهم يجرون نحوي والفرحة تملؤهم، أوقعوني أرضًا وهم يضحكون، لم أملك نفسي من الضحك، قمت بتقبيلهم جميعًا ثم دار بيننا الحديث وأخذنا نضحك ونلعب، كانت لحظات جميلة، كم أحببتهم! كنتُ أتمنى أن أسأل كل واحد فيهم عن مأساته وكيف قُتل، عرفت منهم أن هنا وخلف هذا التل يوجد موتى أطفال وطننا العربي والإسلامي، وعند الجبل البعيد في ناحية الغرب هناك أطفال أوروبا، والذي يليه أطفال أمريكا اللاتينية، فرقتهم الحدود وجمعهم الموت، كانوا يلعبون سويًّا وكل يوم تذهب وفود من كل جبل إلى الجبل الآخر، كانوا يقضون أسعد أوقاتهم هنا، لا يرون في تلك الأرض القاحلة حقدًا ولا كراهية، الحب كان ينبت في تلك القفراء، ليس هناك حروب ولا دماء، الضحكات ثمار الأرض القاحلة، والحب كان هو الماء الذي يروي تلك الثمار، صادقتُ بعضهم وصادقتُ أيضًا طفلاًرضيعًا لا يتكلم، حملتُه على كتفي، كان يحاول أن يضع أصبعه الصغير في عيني، تركتهم على وعد مني باللقاء مرة أخرى، أخذتُ أمشي وأنا سعيد جدًّا حتى وصلتُ إلى الجبل الخاص بأطفال أمريكا اللاتينية، أخذتُ أتكلم معهم قليلاً وأنا لا أفهم من لغتهم أيَّ شيء، بعضهم كان يتكلم الأسبانية وآخرون يتكلمون البرتغالية، هممتُ بالذهاب ولكن راعى

انتباهي شيء غريب، كانت هناك طفلة جميلة، ذات شعر طويل أسود اللون، لا يتجاوز عمرها الست سنوات، تجلس وحيدة لا تلعب مع الأطفال ولا تضحك، وكانت تحمل في يدها قطعة حلوى، ذهبتُ وجلستُ أرضًا أمامها وسألتها: "ماذا بكِ يا صغيرتي؟"

تكلمتْ بلغة لم أفهمها، ولم أعرفها حتى، ابتسمتْ ومدتْ يدها لتعطيني قطعة الحلوى التي تمسكها، ابتسمتُ وقلت لها: "شكرًا، أخبريني لماذا لا تلعبين مع أقرانكِ؟"

كنت أعلم أنها لا تفهمني، ولكني فوجئتُ بها تقول كلمة واحدة: "والتر."

هززتُ رأسي بعدم الفهم فقالتها مرارًا وتكرارًا، وأنا أشير إليها بعدم الفهم، مدت يديها ووضعتهما على رأسي وأغمضتْ عينيها، شعرتُ بألم شديد في رأسي، أغمضتُ عينيَّ وأنا أتأوه من الألم، هدأ الألم في رأسي، فتحتُ عينيَّ لأجد نفسي أقف في شارع مزدحم من شوارع الدنيا، كانت هناك لافتة ما مكتوب عليها اسم ما بلغة أظن أنها إسبانية وتحته باللغة الانجليزية مكتوب – نيوفا – (جواتيمالا)، عرفتُ أني في بلدة تدعى نيوفا في دولة جواتيمالا.

رأيتُ أبًا يسير في الشارع يسأل عن ابنته المفقودة ذات الست سنوات وتدعى (إيفيلين ازيدرو)، كان الأب يسأل عنها ويعرض صورتها على الناس، لمحتُ من مكاني هيئة الصورة فكانت – كما توقعت – للطفلة التي كنتُ أجلس معها منذ دقائق، كانت إيفيلين ابنة ذلك الرجل، سمعته يقول لأجنبي كان يمشي في الشارع مستنجدًا به ويقول بالإنجليزية: "لقد أرسلتُها لتشتري الحفاظات لأختها الصغرى ولكنها اختفت!"، لم يرد عليه الأجنبي، لم يكترث له أحد، توقف الأب وأخذ ينظر لشخص كأنه يعرفه ثم أخذ ينادي عليه: "والتر، والتر اجوير!"، كان شابًّا في الثامنة عشر من عمره يمشي في الطريق ويحمل حقيبة على ظهره وكان جارًا للأب.

- "هل رأيتَ إيفيلين يا والتر؟"

لم يعره الفتى أيَّ انتباه وذهب وتركه، لاحظت من مكاني شيئًا مريبًا، كانت الحقيبة التي يحملها والتر تقطر دمًا، حاولتُ أن أوقفه وأحذر الأب، ولكني كنتُ سرابًا كعادتي في تلك الرحلات الغريبة، تغير المكان من حولي فجأة، وجدتُ نفسي في غابة كثيفة الأشجار في وضح النهار، كان الجو مخيفًا بوجه عام، رأيتُ شابًّا يعطيني ظهره ويفعل شيئًا ما لا أعرف كنهه، اقتربتُ منه فإذا هو الشاب والتر اجوير، درتُ حوله لأرى ما يفعله، فصعقتُ وعدتُ للخلف وكدتُ أسقط أرضًا عندما رأيتُه يغتصب الطفلة الصغيرة ذات الست سنوات وهي تصرخ لا تفهم شيئًا مما يحدث، كانت تتألم وتصرخ، أغراها الشاب بقطعة حلوى وأخبرهاأنه لن يعطيها الحلوى إلا في الغابة، ذهبتْ معه بكل براءة وبعد أن أعطاها إياها قام بفعلته الغريبة الشنعاء، حاولتُ أن أمنعه ولكن كل صراخي وجهدي ذهبا هباءً كأني في فيلم صامت يراه عميان، زاد هيجاني وصراخي الصامت وأنا أراه يخرج سكينًا من حقيبة ظهره ويذبح الطفلة المسكينة ثم يقطع جسدها الصغير لأجزاء واضعًا إياها في حقيبة الظهر، قام من مكانه وحمل حقيبته على ظهره! ومشى خارجا من الغابة ووصل إلى الشارع العام ليرى والد الذبيحة، حاول أن يختفي قبل أن يراه ولكن الأب قد لحق به فلم يعره القاتل أي انتباه، الآن قد علمتُ لماذا رأيتُ الحقيبة تقطر دمًا، وعلمتُ أيضًا من هو والتر الذي أخبرتني عنه إيفيلين كما أني عرفتُ بالتحديد ما هي قصة الحلوى التي تحملها في يديها ببراءة.

فجأة تغير كل شيء من حولي، عدتُ مرة أخرى لأجد نفسي جالسًا مع إيفيلين عند الجبل وقد أزاحت يديها الرقيقتين من على رأسي، أدركتُ ساعتها الآن مدى عذابها وألمها التي شعرتْ به، وأدركتُ لماذا تجلس وحيدة ولا تلعب مع الآخرين، فاذا بها وأنا أبكي تمد يدها اليمنى إلى وجهي وتمسح دمعة قد فرت مني، ثم تبتسم لي من جديد وتمد يدها اليسرى لتعطيني قطعةالحلوى مرة أخرى، نظرتُ إليها ونظرتُ إلى قطعة الحلوى واحتضنتها وقبلتُ رأسها وقلت لها: "وداعًا إيفيلين!"

مشيتُ بعيدًا عنها، وقد فرحتْ هذه الأخيرة جدًّا عندما ناديتها باسمها، سلمتُ على الأطفال وودعتهم مع وعد باللقاء مرة أخرى، ناديتُ على ياسمين فوجدتها بجانبي، كانت تظن أني سأسعد بوجودي هنا ولكنها وجدتْ الحزن يخيم عليَّ، كأنها لم تكن تعلم أن لكل طفل هنا حكاية ولكل طفلة مأساة.

عدتُ مع ياسمين إلى الأرض مرة أخرى، ودَّعتُها مع وعد بلقاء قادم أستعد فيه لرحلة جديدة إلى عالم الظلام. قصدتُ مكتبي في مبنى الجريدة التي أعمل بها، وعلى الرغم من أن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلاً، إلا أنني وجدتُ حارس المبنى مستيقظًا، طلبت منه أن يفتح لي باب الجريدة، ذهبتُ للداخل، جلستُ إلى مكتبي، أخذتُ أقلب في أوراقي والجرائد القديمة، وكل الملفات التي تختص بأمريكا اللاتينية، لم أجد ضالتي، دخلتُ إلى شبكة البحث العنكبوتية، وفتحتُ محرك البحث (جوجل)، فكرتُ قليلاً قبل أن أكتب كلمة ما في خانة البحث، كتبت أخيرًا " إيفيلين + جواتيمالا"، فتحتُ عيني غير مصدقٍ عندما وجدتُ أن قصة إيفيلين قصة حقيقة وقعت أحداثها في بلدة نيوفا – جواتيمالا، وقد وقع نحو ثماني وأربعين جريمة قتل في تلك الدولة لكل مائة ألف شخص في العام الماضي، وهي من أعلى معدلات جرائم القتل في أمريكا اللاتينية، وقد شهدت البلاد حربًا أهلية على مدى ستٍ وثلاثين عامًا وضعتْ أوزارها في عام 1996، ومنذ نهاية الحرب الأهلية تزايدت الجرائم التي ترتكبها عصابات الشوارع وعصابات تجارة المخدرات المنظمة، ومعظم القضايا لم تخضع لتحقيق لائق، وزاد الأمر سوءًا اكتشاف تورط رجال شرطة ورجال أمن فاسدين في جرائم خطف وقتل.اعترف (والتر اجوير) وصديقه باستدراج الفتاة بقطعة حلوى واغتصابها وتقطيع جثتها، وقد أصاب جيرانَ الفتاة الإحباط بسبب عدم كفاءة النظام القضائي وقرروا أن يأخذوا على عاتقهم تنفيذ العدالة وحاولوا حرق الكوخ الذي يقطنه اجوير انتقامًا منه.

خرجتُ من مكتبي بعد أن تجاوزت الساعة الثالثة فجرًا، مشيتُ في شارع نوبار إلى شارع شريف حتى وصلتُ إلى ميدان الأوبرا، رأيتُ تمثال إبراهيم باشا يقف شامخًا، يشير بيديه بعيدًا، وقفتُ أسفل التمثال وأخذت أحدثه وأحدث نفسي قائلاً: "إنها الحرب يا إبراهيم باشا ثانية، حرب أهلية جعلت من إيفيلين وغيرها فريسة للظلم. إلى أين تشير بأصبعك هذا؟ هل تطردني من هنا؟ إذن سأذهب كما تريد!"

أصابني الجنون، أتخيل أن الباشا إبراهيم يطردني من ميدانه، وما الغريب في هذا الجنون؟ أتكلم مع شبح فتاة، وأقابل أشباحًا أخرى، وأرى جريمة قتل تمت على بعد محيط وقارة، وأركب سحابًا، وأجوب بلادًا، وأدخل إلى ثقب أسود، فلماذا لا يكون التمثال يحدثني هو الآخر؟! لا، إنه لا يطردني... ولكنه يشير إلى مكان ما أو شيء ما، اتبعتُ إشارته، مضيتُ في ذلك الاتجاه أخرج من شارع لآخر، ومن ميدان لآخر حتى وصلتُ للميدان الواسع، توقفتُ قليلاً وأنا أضحك على نفسي، هل صدقتُ فعلاً أن التمثال يشير إلى شيء ما؟ توجهتُ للحديقة التي تتوسط الميدان، جلستُ قليلاً أتنسم هواء الفجر العليل، لمحتُ بجانبي عبارة ما على عمود الإنارة: "هنا موعدنا"!

– هل هذه إشارة هي الأخرى؟

ضحكتُ بصوت عالٍ حتى كدتُ أن أوقظ كل من ينام في بيته من سكان الميدان الواسع، غادرتُ الميدان واتجهتُ للجسر الذي يمر فوق نهر النيل، رأيتُ صورتها على سطح الماء، كأنها تبتسم لي وتقول: "موعدنا هنا"، وصلتُ لبيتي وخلدتُ للنوم، ولكنه لم يكن نومًا على الإطلاق.

(5)

1100

(قبل شهرين)

- "السلام عليكم يا ياسمين."
- "وعليكم السلام يا عماه."
- "كيف حالكِ حبيبتي؟!"
- "بخير حال عماه."
- "كيف كان يومك؟"

"استيقظتُ، وقرأت قدرًا من آيات القرآن الكريم، ثم أخذتُ ألعب قليلاً مع الفراش والزهور، وقد صادقتُ اليوم طائرًا جميلاً وأسميته (مرمرًا) كدميتي في الدنيا، كنتُ أطلق عليها اسم "مرمر"

ابتسمت لها وقلت: "وأين هو مرمر؟"

ضحكت قائلة: "ليس (هو) عماه...بل (هي)"

قلت لها ضاحكا: "فأين هي مرمر؟"

أخذتْ تنظر حولها في براءة، وهي تضع أصبعها في فمها وتقول: "لا أعلم ، من المحتمل أنها قد ذهبتْ لتأكل!"

- "سنراها بعدأن نعود من رحلتنا."

قالت ياسمين وهي تومئ برأسها: "وهو كذلك... هيا بنا!"

أمسكتُ بيدي وبدأنا الرحلة، مثلما حدث في المرة السابقة، الذوبان في الكون، ثم السقوط من أعلى، الكون بدا صغيرًا ليكبر بعد ذلك، تزداد سرعة السقوط، يتوقف الزمن هنيهة، نهبط أرضًا، لنرى أخيرًا الثقب الأسود أمامنا، هذه المرة كنتُ أقل خوفًا ورهبة، اعتدتُ على

القيام بهذه الرحلة، وقفتُ أمام الثقب وقد زال عني احساس الأمان الذي راودني للحظات، بدأ قلبي يخفق بعنف، شعور يخبرني أن ما خلف هذا الثقب هو أشد آلاف المرات مما سبق، التفتُّ إليها وقلت لها بصوت خائف : "بالطبع لن تدخلي معي!"

نظرتْ إليَّ ورفعتْ حاجبيها وسكتتْ، فهمتُ من ابتسامتها أنها تخبرني أن بإمكاني العودة، نظرتُ للثقب في شرود فأنا لا أعلم ما سيظهر لي خلف بوابة الظلام، هل هو طفل يموت، أم أشباح مرعبة وشياطين عملاقة؟! بالتأكيد لن تخبرني ياسمين، سأذهب على أية حال. ودَّعت ياسمين وكالعادة نسيتُ أن أسألها عن معنى (السهم الأحمر) بعد أن حذرتني منه واختفت، قلت في نفسي وأنا أدخل الثقب: "يجب ألا أنسى أن أسألها عن ذلك الأمر في المرة المقبلة"

أسمع صوت دقات قلبي بانتظام، صوت ارتطام قدمي بالأرض يبعث في قلبي الرهبة، وجدتُ النور أخيرًا يأتي من بعيد، هذه المرة كان نورًا شديدًا في نهاية الممر المظلم، أدركتُ أن هذه الرحلة في مكان ما مفتوح ومضيء، على عكس رحلة عبير العراق، ارتحتُ لهذا للوهلة الأولى، ولكن بعدما حدث لي هناك أدركتُ أني كنتُ على خطأ تمامًا!

عبرتُ الثقب وأنا أبحث عن موطئ لقدمي لأجد نفسي أسقط من ارتفاع شاهق، انتظرتُ ارتطام جسدي بالأرض، سمعتُ صوت ارتطامه بالماء، غُصت لمسافة عميقة من جرَّاء السقوط، تذوقتُ طعم الماء المالح في فمي وتذكرتُ أني لا أجيد السباحة، ياسمين لا تعرف ذلك، هل قادتني لحتفي؟ اتسعتْ عيناي عندما عاد جسدي إلى السطح، فقد وجدتُ سترة نجاة بجانب رأسي، إن ياسمينًا تعرف أشياءا كثيرة ، ارتديتُ السترة في عجالة، ثم أفرغتُ جوفي من الماء المالح، أخذت أنظر حولي، لا أجد شيئًا على الإطلاق، ما سر هذه الرحلة المائية؟ وكيف سيصل الظلم للماء؟ هل سأجد هنا مثلاً أن سمكة ما تلتهم الأخرى دون وجه حق؟! أخذتُ أدير بصري مرة أخرى بعد أن انزاحت غشاوة الماء من عينيَّ، وجدتُ شيئًا غريبًا، كان هناك حولي مئات من سترات النجاة، وبعد أن انساب الماء ليخرج من داخل أذنيَّ سمعتُ جيدًا ما يدور حولي، كان هناك صوت صراخ، عشرات الصرخات، بل مئات منها، أكاد أقسم أني أسمع من حولي صوت تهشم عظام، الصرخات تأتي من كل اتجاه، أنظر حولي كالمجنون، لون الماء ورديٌّ، كأن ماء البحر اختلط بالدماء، علمتُ الآن ما يدور بالتحديد، عشرات من أسماك القرش تسبح حولي في كل الاتجاهات، وتأكل الناس بلا رحمة، الناس يصرخون وهم يرون الأسماك تلاحقهم من كل صوب وتنقض عليهم بلا رحمة، سمعتُ صوت بكاء الأطفال، الصوت الذي لا أطيق سماعه عندما يبكي الطفل من الخوف أو الألم، لاأستطيع أن أفعل شيئًا، فأنا لا أجيد السباحة، وليس معي سلاح أدافع به حتى عن نفسي ضد هذه الأسماك المتوحشة ، إحساس مخيف عندما ترى قرشًا يعبر بجانبك، تنتظر اللحظة التي سيلتهم فيها جزءًا منك، وتتساءل: هل ستظل حيًّا بعدها لتجهز عليك الأسماك الصغيرة أو تأتي سمكة أخرى وتلتهم جزءًا آخر؟ الماء المالح يدخل إلى جروحك الغائرة ويزيدها التهابًا، تنتظر الدقائق تلو الأخرى وأنت تصرخ من الألم والرعب وأنت ترى جزءًا منك يسبح بجانبك، يدًا أو قطعة لحم، بالنسبة لي فأنا أعلم أني سراب لن يضرني شيء، ولكن كيف بهؤلاء الأطفال الذين – على الأرجح– فقدوا ذويهم، وهم الآن في البحر يصرخون ويستنجدون والسمك يلتهم الواحد منهم بعد

الآخر وخاصة إذا ما افترست السمكة جزءًا من جسدهم وتركتهم أحياءً ليموتوا ببطء، كنتُ أحاول أن أسبح وأنا أرتدي سترة النجاة التي جعلتني أبقى على سطح الماء، حاولتُ أن أتبع أساليب السباحة التي سمعتُ عنها، بأن أحرك رجلي اليمنى ثم اليسرى مع حركة تواترية لليدين، وجدتُ جسدي يتحرك بين الجثث التي سكت صراخها تمامًا، كان البحر مخيفًا بحق وأنا أشاهد الجثث الممزقة تطفو على سطح البحر، أطفالٌ ونساء ورجال الكلُّ سواء، منهم من اتضح معالم وجهه وآخرون ليس لوجوههم معالم، كان هناك رجل وزوجته يلتصقان ببعضهما البعض، وتوأمين عمرهما سنة واحدة أكلت الأسماك نصف أحدهم ولم تقرب الآخر، كانت هناك جثة امرأة أكل السمك معالم وجهها، وجثة أخرى لم يبقَ منها سوى العظم، تطفو على سطح البحر جثة طفل لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره أكل السمك معظم أنحاء جسمه وبقي الوجه.

كنت أعتقد أني ما شاهدته من قبل في أفلام غرق السفن من غرقى وقتلى في كل مكان، من الصعب أن تراه في الواقع، ولكن ها أنا هنا أرى الموت مجسمًا أمام عيني في كل شيء، وماء البحر شديد البرودة، فمن لم تأكله القروش مات من البرد، ومن الواضح أن هذه الأجساد ظلت لمدة يومين أو ثلاثة في الماء البارد، أثناء سباحتي بين الأشلاء والجثث الطافية الساكنة ذات النظرات المرتعبة، وجدت طفلاً حيًّا في سترة النجاة الخاصة به يطفو على سطح البحر، يبلغ من العمر ستَّ سنوات وقد جفت عيناه من البكاء، كان لا يفعل شيئًا وينظر إلى العدم، ذهبتُ باتجاهه وقلبي يدق بعنف.

- "ما اسمك يا بني؟"

لم يرد عليَّ، وظل شاردًا بعينيه، من الواضح أن تلك الأهوال قد أصابته بصدمة هائلة أفقدته النطق بعدها، بعد أن عدتُ من رحلتي علمتُ أن الطفل اسمه محمد أحمد وعمره ستة أعوام، وقد ظل في الماء لمدة ست وثلاثين ساعة وحيدًا، بعد أن غرق أبوه وأمه ورضيعهما، فقدَ كل أفراد أسرته، وضعه والده مع شقيقته في طوق نجاة واحد وألقى به في المياه ثم وضع والدته ورضيعها في طوق آخر وألقى بهما كذلك في البحر ثم تبعهما هو في طوق ثالث، ظل الوالد بجوار محمد وشقيقته إلى أن تمكن من وضعهما على زورق نجاة ورفض الصعود معهما مفضلاً البحث في المياه عن زوجته ورضيعه ولكنه اختفى معهما، سقط محمد من فوق زورق النجاة المكتظ بالركاب وأمضى ستًّا وثلاثين ساعة في المياه الباردة، أخذتُ أهزه بعنف كي يفيق من الصدمة، ظننتُ في البداية أنه يراني وينظر إليَّ، ولكن بعد أن ظهر الرعب على خلجات وجهه أدركت أنه ينظر لشيء آخر يأتي من خلفي، فنظرتُ فإذا بسمكة قرش تسبح حولنا، وضعتُ يدي على فمه حتى لا يصرخ، كنتُ متأكدًا من أنه لم يعد لديه صوت يصرخ به، اجتاح الرعب جسدي عندما تخيلتُ أن محمد سيمزَّق أمامي، أخذت أصرخ باسم الله الأعظم، فجأة رأيتُ زروقًا يمر بجانبنا، صعد محمد إليه وهو ينظر إليَّ بنظرات واهية، أكاد أقسم أنه يراني وأني لستُ سرابًا بالنسبة له، حمدتُ الله، طفل لم يتعدى السادسة من عمره مر عليه في الماء البارد ليلتان، خوف لا ينتهي، يتوقع الموت في كل لحظة، هل سيأتي من الخلف، أم من الأمام أم من الأسفل؟ صوت الموج المرعب، الماء يلجم الفم كلما هاجت الأمواج فلا يقوى على الصراخ.

من كان معك يا صغيري ليزيح الخوف عنك؟ أهُم ملائكة الله، أخاف عليكَأن تظل صامتًا هكذا إلى الأبد. كنتُ أنظر اليه وهو ينظر إلى هو الاخر والزورق يبتعد به رويدًا رويدًا.

تغير كل شيء حولي، وجدتُ نفسي في غرفة قيادة لسفينة بحرية، وأمامي القبطان يتكلم مع مساعده، حاولت أن أسترق السمع، سمعتُ المساعد وهو يخبر القبطان أن هناك حريقًا في غرفة المواتير أسفل السفينة، وأنهم يجب أن يعودوا إلى ميناء (ضبا) مرة أخرى، يظهر التردد على وجه القبطان، يخبره المساعد أنهم يبعدون عن الميناء ساعتين فقط ويمكنهم العودة في أمان، بعد ذلك رأيتُ القبطان يتجه إلى جهاز الاتصال، يتصل بشخص ما ويخبره بالوضع، تأتيه الإجابة واضحة عبر جهاز اللاسلكي بأن يستمر في طريقه.

ذهبتُ إلى خارج كابينة القيادة إلى سطح السفينة، وجدتُ الركاب جميعهم في حالة قلق، سأل أحد الركاب واحدًا من طاقم السفينة عن الحريق، فطمأنه هذا الأخير بألا يقلق وأنهم سينجحون في إخماده.

سمعت واحدًا من طاقم المركب يخبر زميله أنهم قد استخدموا خراطيم المياه في إطفاء الحريق بعد أن عجزت طفايات الحريق البالية عن ذلك، وأخبره أن الطاقم بعد أن نجح فى ذلك عادت النيران للاشتعال من جديد بعد نصف ساعة فاستخدموا كميات كبيرة من المياه بهدف إطفاء النيران نهائيًا، المشكلة الكبيرة – كما سمعتهم – أن بالوعات الصرف كانت عاجزة عن عملها في تصريف تلك الكميات الكبيرة من المياه وأن السفينة معرضة للغرق، رأيتُ بعدها وفدًا من الركاب في طريقهم للقبطان كي يطلبوا منه العودة فورًا، تبعتهم إلى كابينة القيادة مرة أخرى، كانت كلمات القبطان واضحة عندما قال: "أنا أدرى بالباخرة ولن أعود!"، ظل الوضع هكذا لفترة من الوقت، بعد أن أصر القبطان علي المضي باتجاه ميناء (سفاجا)، وبعد أن اتصل مرة أخرى بأصحاب الشركة الذين هددوه بالفصل إن لم يتبع أوامرهم ويستمر في طريقه.

فجأة تمايلت السفينة، وضابط المراقبة يصرخ بأعلى صوته: "السفينة تميل ثماني درجات أيها القبطان "!، امتقع وجه القبطان ولم يقوَ على الرد، تمايلت السفينة أكثر، صرخ المراقب مرة أخرى: "وصلت اثنتي عشرة درجة"، القبطان يتراجع للخلف، يأمر طاقمه بالاتجاه لأحد الزوارق وركوبه، يسأله أحدهم: "وماذا عن الركاب؟"

القبطان: "الزوارق تكفي نصف الركاب فقط، أما النصف الآخر فيجب أن يرتدوا سترات النجاة وتوزع عليهم أطواق النجاة."

يصيح المراقب: "عشرون درجة... السفينة تغرق يا قبطان!"

صرخ القبطان: "إنهاسفينة بالية، لا تصلح للسفر في هذه المناطق، طالما أخبرتهم أنها تصلح فقط لنقل البضائع، وليس آلاف البشر!"

أخذ أحد ضباط الطاقم يمسك برقبة القبطان: "لقد أخبرتك أن فرصتنا كانت في العودة، كنا نبعد ساعتين فقط عن ضبا، سوف نغرق الآن ومعنا مئات البشر، عليك اللعنة!"

تخلص القبطان من قبضته وقال: "ماذا أفعل؟ لقد هددوني بالفصل!"

- "وما قيمة وظيفتك أمام أرواح المئات؟"

- "على الجميع أن يتوجه لقوارب النجاة الآن، انجوا بحياتكم."

انطلقتُ للخارج لأرى السفينة وقد مالت تمامًا، والسطح قد امتلأ بمئات الركاب يصرخون ويتسابقون في ركوب القوارب، سمعتُ أحد أفراد الطاقم الذي بقي ليساعد الناس ولم يهرب مع القبطان يقول لزميل له: "ولأن صاحب السفينة 'نحم' فقد ألغى الجراح العلوي المخصص للسيارات وقام ببناء كبائن درجة ثانية بطريقة غير مطابقة للمواصفات، والغريب أنه عندما احتاج إلى وجود غرفة مولدات إضافية، قام ببنائه أسفل هذه الكبائن وتلك هي المصيبة، ومع ذلك حصل علي التصريح اللازم.

الزميل: "المصيبة في أن راكب الكبائن والبولمان في هذه السفينةلا يمكنه الخروج إلي السطح، والعكس صحيح فراكب السطح لا يستطيع أن يدخل الكبائن، ولذلك يحدث الارتباك الشديد في حال وقوع الكوارث، كما يحدث الآن!"

- " اللعنة عليهم جميعا"

كنتُ أرى الناس يتدافعون، ومنهم من يلقي بنفسه في الماء، ومنهم من يقع نتيجة التزاحم، أرى أطفالاً تبكي، ونساء فاقدة وعيها، الكل يجري، قوارب النجاة لا تنفتح، كانت معطلة هي الأخرى، كأن الجميع قد تآمر عليهم، القارب الواحد يتسع لعشرين، وعلى السفينة يوجد ثمانية وثمانون قاربًا فقط أغلبهم لم ينفتح، السفينة تغرق، الجميع يصرخ، رأيت أمًّا تتلو الشهادتين وتُلبِس أولادها سترات النجاة ودموعها تفر على وجنتيها وهي لا تجد سترة لنفسها.

السفينة خلت تمامًا من طاقمها، فقط الركاب موجودون بالمئات، ألف وخمسمائة راكب، المياه تقترب، الصرخات تزداد، الدموع تختلط مع مياه البحر، الموت قادم والناس في حالة هياج، أرى الاطفال تبكي، بعضهم يتشبث بقضبان المركب، لا يعرف أين أبوه أو أمه، قد يكونان الآن غرقى بعد أن وقعا في البحر مع ميل السفينة. هناك رجل عجوز يسقط أرضًا ويتدحرج عليها ويصطدم بكل شيء، مئات من الركاب محجوزون في كبائنهم يصرخون وهم يرون الماء يتدفق إليهم، أرى شيخًا يجلس ويقرأ القرآن ودموعه لا تفارقه فقد علم أن النهاية قد اقتربت.

ما كان يدميني ويذبحني هو صوت الأمهات وهن يبكين ويصرخن ويستنجدن بمن يأخذ أطفالهن في الزوارق حتى يعيشوا، صرخات الأطفال لا تتوقف كلما غرقت السفينة أكثر، تسكت الصرخات تدريجيًّا بعد أن يغطيها الماء شيئًا فشيئًا.

مات ألف ومائة طفل وشيخ وشاب وأم وفتاة ورجل كي يعيش شخصان فقط: صاحب الشركة ونجله. تجرد الجميع من الرحمة، لم ترسل فرق الإنقاذ لانتشال من عاش، ست وثلاثون ساعة من العذاب في الماء البارد، الصوت يقل تدريجيًّا؛ فالأرواح تصعد. العدَّاد مستمر، الأسماك تلتهم، سفينة مصرية تمر بجانبهم تتركهم لمصيرهم ولا تنقذهم بأمر قبطانها، لا أحد يكترث بصرخاتهم، رأيتُ السفينة المارة بأم عيني والجميع على متنها يشاهد، مثلنا جميعًا، عشرات من السنين نشاهد، نتفرج كأنه فيلم سينمائي نحن أبعد ما نكون عن أحداثه، يا له من ظلم، الكل متآمر بما فيهم أنا، تموت الحقيقة كما ماتوا هم، إلى أن جاءت ياسمين وأزالت غشاوة عقلي لأتذكر، لأتذكر حقيقة أن الجميع كان يجب أن يموت، كل من شاهد الحريق، وشاهد السفينة البالية والمعدات المعطوبة يجب أن يموت كي تموت معه الحقيقة، ماتت ياسمين فهل ماتت الحقيقة؟ أرى السفينة البنغالية تتوقف على مقربة وتبعث القوارب لتنقذ من تبقى، لون غير اللون وجنس غير الجنس، ولكنهم بشر لديهم مشاعر يقدرون قيمة الحياة، أما السفينة المصرية فلم تختلف أبدًا عن تلك القروش، مرت بجانب الناجين وسمعوا صرخاتهم في الماء والقروش تأكلهم، ولكنهم تركوهم.

إني الآن في البحر أغوص مع السفينة التي تغوص، تركتُ جسدي يغرق مع السفينة التي تواصل رحلتها للقاع، تمنيتُ ساعتها أن أذوب... أن أختفي، ألا أكون سرابًا وأن تأكلني القروش، وتقطع جسدي، وفي معدة كل قرش جزء مني، كي أرتاح، كيف أعيش بعد هذه الرحلة؟ لا أدري.

رأيتُ في الماء عبر زجاج نافذة إحدى الكبائن طفلاً في غرفته يضع يده على زجاج النافذة وهو ينظر إلى والماء يغمره شيئًا فشيئًا وأنا أغوص معه، وضعتُ يدي على الزجاج من الخارج بمحاذاة يده، وبالرغم من برودة الماء – وقد كانت هذه المنطقة يصل عمق البحر فيها إلى تسعمائة قدم – فقد شعرتُ بدفء الدموع المنسابة على وجنتي، ابتسم الطفل لي وهو يضع يده على الزجاج حتى وصل الماء إلى فمه وما زال مبتسمًا حتى امتلأت غرفته بالماء، رأيته يصارع الماء حتى سكن جسده تمامًا في دقائق وما زالت ابتسامته مرتسمة على شفتيه،

صعد جسدي رغمًا عني إلى سطح الماء لأسمع مئات الصرخات، وأرى عشرات الأسماك، ومئات الجثث، الليل والرعب والبرد والصقيع ورائحة الموت والظلم يعبئون الجو، مر الوقت بطيئًا قاتلاً والصرخات تقل وتقل وتقل.... حتى سكتتْ تمامًا.

صرختُ بأعلى صوتي: "ياسمين!"

عدتُ وأنا أشعر بأن قلبي قد انتُزع من مكانه، توقعتُ أن أجد ياسمينًا تبكي عندما وصلنا للربوع الخضراء، ولكني وجدتها تجري ضاحكة وتقطف وردتين وتجري ناحيتي ثم تجلس في حجري وتعطيني وردة حمراء، وتقول لي وهي مبتسمة:

- " عماه، أعطِ هذه الزهرة لمحمدالذي قابلتَه في الماء وقبّله، وقل له أن ياسمينًا تقرئك السلام وتقول إنها ستأتيك ليلاً لتلعب معك، فافتح لها الباب!"

لم أنطق ببنت شفة، وأنا أتركها وأتجه بسيارتي إلى مكتبي في الجريدة، انكببتُ على جهاز الحاسوب، أبحث في التقارير القديمة وأقتل الموضوع بحثًا، ألف ومائة شهيد، كان من الممكن أن يقل عددهم لثلثمائة في رأى أحد الخبراء إذا أسرعت آليات الإنقاذ أو أن السفينة المارة بجانبهم والتي تتبع نفس الشركة قامت بدورها وسارعت في إنقاذهم، ألف ومائة كان من الممكن أن يصبحوا (صفرًا) إذا عاد القبطان لميناء ضبا مرة أخرى، أخذتُ أقلّب أحد التقارير الذي نشرته إحدى جرائد المعارضة عن اختطاف الناجين من الطاقم، واطلعتُ على شهادة أهليهم على ذلك حتى لا يشهدوا على ما حدث، كالعادة يجب أن يموت كل طفل ومئات الآباء والأمهات والفتيات وتنتهك حرماتهم ليعيش رجل الأعمال المشهور.

شاهدتُ أحد الفيديوهات لأمٍّ قد جُنَّت تمامًا، فلقد رأت ابنها الشاب على شاشة التلفاز وهو على متن السفينة البنغالية بعد أن أنقذوه من الموت، وقد أظهرت الكاميرا صورة وجهه ووجدوا اسمه على قائمة الناجيين؛ ففرح الأهل واتصل الأقارب ليهنئوها فقد شاهدوه هم أيضًا على شاشة التلفاز وتعرفوا على صورته، ذهبتْ الأم لتزور ابنها في المستشفى فمنعوها، ذهبتْ مرة أخرى بعد فترة وجيزة لتجده قد اختفى تمامًا من المستشفى، اختُطف كما تروي هي.

رأيت فيديو آخر لبعض الشهود شاهدوا رجالاً يرتدون ملابس رسمية جاءوا للمستشفى وأخذوا الناجين من طاقم العبارة في سياراتهم، واختفى الناجون من ساعتها حتى يومنا هذا!

جُنت الأم تمامًا، تذهب هنا وهناك لأقسام البوليس والمحاكم، تخبرهم باختطاف ابنها ولا أحد يلقى لها بالا، وقصصًا أخرى عن عشرات الناجيين الذين شاهدهم أهلوهم على شاشات التفاز أو قرأوا أسماءهم في كشوف الناجين أو خاطبوهم تليفونيًّا، ولكنهم اختفوا بكل بساطة.

لقد أخذت تلك الأم تسير بصورة ابنها في الشوارع وتقف بها في ميدان عبدالمنعم رياض ترفعها لأعلى لعلها تجد من يتعرف على صورة ابنها ويريح قلبها. سألتُ عنها بعد ذلك، علمتُ أنها في مشفى الأمراض العقلية، جُنت الأم!

قرأت تقريرًا آخر أنهم قد تركوا صاحب الشركة يفر خارج البلاد، ثم حُكم له بالبراءة وبعد سنوات من الاستئناف أخذ حكمًا بسبع سنوات فقط، وأين هو الآن؟ لا أحد يعلم ولا أحد يكترث! أخذتُ أمشي في الشوارع بلا هدف، دموعي تسبق قدميَّ، أتذكر تلك الأيام جيدًا، لم تُعلن حالة الحداد في البلاد، لم يظهر الناجون المختطفون مرة أخرى، ماذا حدث على السفينة ولا يريدوننا أن نعرفه؟

تأخذني الذكريات، تأتي الكوارث صورًا ومشاهد أمام عينيَّ، وجدتُ نفسي أصل لميدان عبدالمنعم رياض، لعلها صدفة، فهو الميدان نفسه الذي كانت الأم تأتي إليه قبل أن تجن، نظرت لتمثال البطل عبد المنعم رياض، رفعت رأسي نحوه، أخذت أحدثه، كنتُ أشعر أنه يسمعني.

- "أخبرني أيها البطل، ماذا يحدث لنا؟ لمَ كل هذا الظلم؟"

انتظرتُ منه إجابة ولكن لم يرد، أشعر أنه يسمعني ولكنه لا يرد، أخذتُ أطرق بيدي على قاعدة تمثاله لعله يعود من عالم الأموات مرة أخرى، ألستُ أرى أشباحًا أخرى، لماذا لا يعود ويذهب إلى جبهة القتال ويموت هناك مرة أخرى بعد أن يحررنا من الظلم؟

آلمتني يدي فتركته لحاله، جلستُ أسفل منه، تذكرتُ حادث قطار الصعيد التي توفي فيه مئات الركاب بعد أن تفحموا، ما زالت عالقة أمام عيني تلك الصورة التي رأيتها لإحدى الجثث المتفحمة داخل القطار وهي جالسة على مقعدها، فاتحة فاها من الألم لم تجد الوقت الكافي لتهرب أو تقفز من الجحيم، وأخبرونا بكل بساطة أن القطار قد احترق بسبب موقد كيروسين والرياح أدت لاشتعال القطار كله، هراء في هراء! فالحريق بدأ في العربة قبل الأخيرة، كيف انتشر الحريق عكس اتجاه الرياح للأمام؟ كذب وافتراء، تضليل وإعلام غائب ونظام فاسد.

نظرتُ إلى التمثال الحجري الذي لا ينطق، وجدتُه يشير نحو جهة ما، هل يريدني أن أذهب في ذلك الاتجاه؟ لعلها إشارة ما، أو لعلي قد جُننتُ تمامًا.

ذهبتُ في نفس الاتجاه الذي يشير إليه بيده، حتى وصلتُ إلى ذلك الميدان الكبير مرة أخرى، عمود الإنارة نفسه والجملة ذاتها "هنا موعدنا". حتمًا جُننت! حتمًا أنا أخرف تمامًا ولا أقابل أي أشباح!

لعل (ياسمينًا) كذبة أو خيال، لعلي أعاني من مرض الفِصام، لعلي لا أوجد، أو أكون أنا الشبح! هل يستطيع شخص ما في العالم كله أن يقول إن كل هذا الظلم هو حقيقة كائنة؟ لعله افتراء من عقلي ومحض خيال أو أني شخص مجنون يعاني الاضطهاد والدنيا حولي مدينة فاضلة كالتي حلم بها أفلاطون؟

نعم، ولم لا؟ لقد حلم أفلاطون منذ أكثر من ألفين وثلثمائة سنة بتلك المدينة التي تخلو من الحقد والكره والفساد، ويملؤها الحب، تطوَّر البشر ومرت السنون، فمن المنطقي أن يتحقق الحلم الأفلاطوني، إذن أنا مجنون حتمًا... أنا كذلك!

(6)

العقل الباطن

(قبل شهر)

لا زالت مقالتي يتردد صداها منذ شهر كامل وقد هاجمت مراكز القوى التي ساندت مالك العبَّارة، لن تهدأ أرواح الغرقى إلا بعقاب المتورطين ومحاسبة المرتشين الذين سهلوا له أن يكسب مئات الملايين من وراء احتكاره للخطوط الملاحية في البحر الأحمر وتجاوزه للقانون الملاحى، كان يتعمد شراء السفن المتهالكة، ويسترد ثمنها في مدة عام تقريبًا، ثم يبدأ عملية جني الأرباح التي تتم علي حساب الأمان والسلامة، السفينة الواحدة كانت تحمل ضعف العدد المسموح به، سترات وأطواق النجاة كانت رخيصة ولا تعمل، تآمرت كل أجهزة الدولة على ركاب السفينة الغارقة.

تتوالى الاتصالات اليومية تؤازرني وتطلب مني أن استمر في فتح الملفات المغلقة، تأخذني تلك الأفكار وأنا أقود سيارتي للقاء ياسمين، اللقاء الشهري الذي يجمعنا، كي تفتح أبواب عقلي المغلقة وتحل شفرته.

– "ياسمين... يا بنيتي... أين أنتِ؟"

كنت أبحث عن تلك الصغيرة وأنا أسمع ضحكاتها تتردد في الأنحاء، كانت غلطتي أن وافقتها على لعب الغميضة، نسيتُ أني ألعب مع طيف يستطيع الاختفاء متى يريد!

- "ياسمين، أين أنتِ؛ لقد أتعبتِني!"

ظهرتْ فجأة من وراء شجرة وهي تخفي وجهها ببراءة، تصنعتُ أني لا أراها، اقتربتُ منها مناديا باسمها ثم جريت فجأة وأمسكتُ بها، أخذتْ تضحك بصوت طفولي، جلسنا سويًّا ثم أجلستُها في حجري، نظرتُ إلى وجهها الجميل وهي تلعب مع الزهور.

- "هل تعلمين يا صغيرتي أني أحبك حبًّا شديدًا؟"
- "وأنا أيضًا عماه."

أقبلتْ عليّ ثم قبلتني، فقبلتها وأنا أتلاعب بشعرها الذهبي حتى اعتدلت وقالت لي:

"عماه، أريد منك شيئًا!"

- " اطلبي ما تريدين."
- " أريد أن أرى أمي... أفتقدها بشدة!"

نظرت إليها وقلبي يرأف لحالها:

- " بإذن الله ياحبيبتي."

حدثتُ نفسي بأن الأشباح تستطيع الذهاب إلى أي مكان، لماذا تحتاج إليّ، أم أنها عالقة في تلك المزرعة؟ لا أعلم، ولا أنوي السؤال.

في يوم الذكرى الأربعينية لفقدانها ذهبت إلى المقبرة الخاصة بها، كان أباها وأمها هناك والأخيرة تنتحب متكأة على زراع زوجها، وقفت على مقربة منهم، وجدت أن (ياسمينًا) التي كانت تقف بجانبي قداختفت لتقف بينهما وتنظر إليهما والدموع تلمع في عينيها، تمد يديها كي يمسكان بها كما كانا يفعلان في الدنيا ولكنهما لا يشعران بوجودها، انهمرت دموع الأم في بكاء حادٍ، كنتُ أتمنى أن أخبر الأم أن ابنتها بخير حال وهي في معية الله، ركنتُ إلى أحد القبور أنظر إليهم، ركعا أرضا كي يضعا الزهور على القبر، وجدت بجانبي ياسمينًا تجلس باكية تقول لي: "هيا بنا يا عماه!"

- "لماذا؟"
- "إنهم لا يرونني."
- " ولكنك تستطعين."

ذهب الاثنان وتركا المكان بعد أن ألقت الأم نظرة أخيرة على قبر ابنتها، جلسنا أنا وياسمين أرضًا أمام جذع شجرة عجوز حتى ابتدرتني ياسمين بالسؤال:

- "عماه... مَن قتلني؟ ولماذا أخذني من حضن أمي وأبي؟"

لم أجد ردًّا شافيًا أرد به عليها، فقلت لها:

"لا أعلم ، ولكنه إن كان قد أخذك من أهلك فأنت الآن مع الله وهو أرحم بك من أمك وأبيك."

أدارت عينيها الناحية الأخرى، وقالت:"أنتم من ضيعمتونا!"

نظرتُ إليها وأنا أمسك يدها بقوة، وقلت لها: "لماذا تصرين على قول ذلك؟!"

- "عماه، اترك يدي، إنك تؤلمني!"

نزعتُ يدي وتأسفتُ لها، لم أكن أشعر أني أؤلمها لهذه الدرجة.

- "عماه، لكي تعلم ما أقصده يجب أن آخذك لرحلة غير كل الرحلات، رحلة من الممكن ألا تعود منها كما كنتَ، رحلة ليس فيها قتلى ولا غرقى، ولكن فيها ألما!"

ابتلعتُ ريقي بصعوبة وقد أصابني الخوف من حديثها، فأردفتْ قائلة: "هل أنت مستعدٌّ ياعماه؟"

كان فضولي لمعرفة الحقيقة أقوى من خوفي، فرددتُ: "مستعد، هيا بنا."

مرت الرحلة بسلام حتى وصلنا أمام الثقب الاسود، تركتُ يدها وتوجهت للثقب الأسود منفردا. وجدتُها تضع يدها في يدي مرة أخرى قائلة:"سآتي معك!"

- "هل ستفعلين؟!"

- " نعم، لقد أخبرتكَ أن هذه الرحلة ليس فيها قتل ولا حرق ولا غرق، كما أن هناك سببًا آخر ستعرفه لاحقًا."

دخلتُ إلى الثقب الأسود هذه المرة وأنا مطمئن، يدي تمسك بيد الصغيرة، قلت لها ونحن نسير في الممر المظلم: "ألن تحذريني هذه المرة من السهم الأحمر؟"

- "لا يا عماه لن أحذرك... هل نسيت أني معك؟"
- "ولكن ما هي قصة السهمالأحمر؟ ولماذا لم أقابله مطلقًا في الرحلات السابقة؟"
- "أنا لم أحذرك من السهم الأحمر كي تتجنبه في رحلات الظلام."

لم أفهم، توقفتُ عن المضى وقلت: "ماذا؟ ماذا تقصدين؟"

نظرتُ أرضًا وقالت: "لا أستطيع أن أخبركَ، ساعتها سيكون لديك الخيار في أن تجتنبه".

لم أفهم مغزى كلامها، أكملنا سيرنا، كنت أشعر أن الممر هذه المرة أكثر طولاً، كانت المصابيح تنتشر على جوانبه، وصلنا لآخر الثقب، بمجرد أن عبرتُه شعرت بدوار وألم في رأسي، لم ينتبني هذا الإحساس من قبل في الرحلات السابقة، أخذتُ ياسمين بيدي وأجلستني أرضًا مسندًا ظهري على صخرة ما، واضعًا يدي على رأسي أحاول أن أوقف الدوار الذي يجتاح عقلي، قلت لها بصوت واهن:

"أين نحن يا ياسمين؟ أشعر بألم رهيب في رأسي."

- " انظر حولك وستعرف أين نحن. "

استقمتُ بصعوبة وأخذتُ أتجول مستكشفا ما حولى، فوقي لا توجد سماء بل سقف أسود، الصخرة الكبيرة التي كنتُ أركن إليها، بدت كأنها شاشة كبيرة وهناك أطياف تمر من خلالها، ومثلها صخور مضيئة في كل مكان، بل شاشات عملاقة وأطياف تمر من هنا وهناك، شدتني صورة مشوشة، اقتربتُ منها فإذا هي صور متحركة، ولكن مهلاً..أنا أعرف هذه الأطياف جيدًا.....

هذا الطيف هو أنا، أتكلم مع والدتي، ورائي طيف آخر، أخي يلعب معي ونحن صغار، عشرات الأطياف من حولي إنها ومضات من حياتى، والماضي الخاص بي.

- "أين نحن؟"

- " نحن بداخلك."
- "لا أفهم!"
- "نحن داخل عقلك، نفسك وماضيك، نحن بداخلك ياعماه."

نظرتُ حولى، علمتُ الآن لماذا أصابني الدوار حينما دخلتُ، ولماذا أصرت ياسمين على الدخول معي، بقائي هنا وحيدًا حتما سيصيبني بالجنون، مهلاً، ما هذه الصورة؟ إنها صورتى وأنا ألعب مع جدتي رحمها الله وهي تضحك، أخذتُ أقترب أحاول أن ألمس الصورة وألمس وجه جدتي التي كنتُ أحبها حبًا جمًا، ولكن ياسمينًا أمسكت يدي بقوة.

- "لا تقترب أكثر من هذا ولا تعبث بماضيك، هيا بنا لأريكَ ما وجب أن تراه."

أخذنا نمشي بين الأطياف، أرى مشاهد طفولتي وصور أهلي، كانت ياسمين تحاول دائمًا أن تجذبني إليها حتى لا أعبث بأطياف الماضي.

وصل بنا المسير لطيفٍ معين قد استوقفتني ياسمين عنده وطلبتْ مني أن أجلس أرضًا، فعلتُ ذلك وأنا أنظر لذلك الطيف، اقتربتْ مني الصورة كأني توحدت معها، رأيتُ نفسي طفلاً صغيرًا، عمري تسع سنوات أجلس عند بيت جدتي رحمها الله، أجلس خارج البيت تحت وهج الشمس على عتبة الباب التى كانت قطعة كبيرة أسمنتية اللون، ملساء، والشمس تضرب فيها طوال الصباح والظهيرة، فتصبح كالموقد الحامي، كنتُ أضع تحتي وسادة من القطن حتى لا أشعر بسخونة المكان، أرى الطفل – أنا – يبحث في التراب عن بيت للنمل ويجمع النمل الصغير بأخذ واحدة تلو الأخرى يضعها على السطح الساخن، ما يكاد النمل يسقط على المسطبة بحرارتها الملتهبة حتى يتلوى كأنه ألقى في زيت مغلي، تنتفض النملة قليلاً حتى تسكن تمامًا وتتكور حول نفسها، يُحضِر الواحدة تلو الأخرى ويفعل فيها نفس الشئ.

شعرتُ بالاشمئزاز من نفسي وأنا أراني أفعل ذلك، كيف لطفل صغير يحمل بداخله هذا الشر؟

تغيرت الصورة لأرى الطفل قد كبر عامين وهو فوق سطح البيت يتكلم مع طفلة صغيرة عمرها خمس سنوات، وبدن سابق إنذار يضربها بلا سبب، الصغيرة تبكي، يتلذذ ببكائها ويضربها مرة أخرى، يضع يده على رقبتها ويضغط عليها بعنف ويسمع تأوهاتها ثم يترك عنقها بعد أن تلذذ بفعلته فتذهب باكية. تذكرت قاتل ياسمين وهو يتلذذ بقتلها وتأوهاتها وهي تنتفض كالطير الذبيح.

تغير المنظر...أرى نفسي شابًا يافعًا أقف أمام أبي وأمي، أصرخ فيهما وأترك لهما البيت وأمضي تاركا أمي والدموع على وجنتيها، عرّتني ياسمين أمام نفسي، رأيتُ حياتي تمر من أمامي، كل ما فعلته من سوء، فتحتُ فمي دهشة وأنا أنظر لحالي.

- "ياسمين، أنا لستُ هكذا، أقسم لك أني غير هذا الإنسان القاسي، الذي يتلذذ بألم الآخرين، أنا لستُ مثل قاتلكِ!"
- "داخل كل منا شر، إن الله قد خلق فينا نفسًا سوية تنادي دائمًا بالخير، تطلب منك مساعدة الناس وتبعدك عن الخطيئة، وهى النفس المطمئنة، تعالَ معى سأوريك."

رأيت معها أطيافًا لي وأنا أحتضن هذا، وأبكي على حال هذا، وأبتسم لهذا، أضحك مع أبي، وأقبّل يد أمي.

- "عماه، لقد خلق الله لنا النفس السيئة التي تدعوك لفعل السوء؛ فإذا استسلم الإنسان لها وصل به الأمر لارتكاب الجرائم."

وهذا هو اختيارك عماه، أترضى بحكم هذه النفس أم الأخرى؟ الشر لن ينتهي داخل الإنسان وإلا فسيصبح كل واحد منا رسولاً أو قديسًا أو راهبًا متبتلاً، الفطِن هو من يحد من شره ويسجنه داخله ويجعل الخير سيده والشر خادمًا له. الفرق بينك وبين قاتلي أن قاتلي لم يُزَكّ نفسه وترك نفسه فريسة للشر وقضى على الخير بداخله؛ فظهرت له نزوات غريبة ومتع جديدة خلقها بداخل نفسه الغير سوية، كالقتل مثلا. أما أنت يا عماه فقد وفقك الله أن تختار الخير وتحد من الشر، عندما قلت لك أنك سبب في موتي، لم أكن أقصدك على وجه التحديد، ولكني قصدتُ بني الإنسان، كلكم داخلكم الشر ولكنه يتدرج من إنسان لآخر، وهي حكمة الله في الكون؛ فلذلك عماه أخبرنا الله أنه لا يغير ما بقوم حتى يغير القوم ما بأنفسهم، ولو كنتم اتبعتم كلام ربكم في تغيير أنفسكم لوجبت سنة الله علينا وتغير حالنا، ولم نُقتل نحن الأطفال ولاانتهكت حرمات النساء، ولااغتُصبت أراضينا."

- "نعم يا بنيتي، أنتِ على حق تمامًا."
- "عماه، تعالَ معي، سأريكِ طيفًا آخر وصورة أخرى."

ذهبتُ معها حتى وصلنا لصخرة بعيدة في آخر المكان، وأمامها وجدت طيف إيفيلين يتحرك من أمامي، بعدها رأيت عبير العراق وأختها (هديلاً)، وكل صور الحرب، رأيتُ قطار الصعيد المتفحم، رأيتُ العبّارة وهي تغرق، رأيت فلسطين تنتهك، رأيت (الدُّرَّة) يموت، صبرا وشاتيلا، مئات القتلى والجثث....

- "الآن قد أدركتُ يا ياسمين ما ترمين إليه."
- "عماه، إن كل الرحلات التي مرت بك معي هي من صنعك أنت، لقد جعلتني وسيلة فقط كي أكون السبب لتبحر فيها ولعلى لا أوجد أصلا، إن حادثة إيفيلين هي بحث تقدمتَ به أنت أثناء دراستك الجامعية عن حوادث العنف في أمريكا اللاتينية، أما غرق العبارة فهل تذكر عندما كنت تبكي وتصرخ بين أصدقائك وأنت تجلسون في المقهى أيام الحادثة تريدون أن تفعلوا أى شيء انتقامًا للشهداء الغرقى؟ وعبير العراق، هل تتذكر عندما دمعت عيناك عندما قرأت قصتها؟ أيامًا وليالٍ تجلس مع زملائك الصحفيين والكتاب تنوحون على زمن القومية، وترثون صمت العرب على غزو العراق! وأنا، ألم تكن حادثة موتى هى تقرير إخبارى تقوم بتغطيته؟

عماه، كل هذه الرحلات كانت أطيافًا في ذاكرتك ولكن الفرق أنك قد نسيتها، كما تنسون كل شيء، أما نحن فلا ننسى، سيأتي اليوم لنرى فيه المجرمين والقتلة يعاقَبون على ما فعلوا، لقد نسيتم كل شيء، لقد أتيتُ بك إلى هنا كي تتذكر، يجب ألا تنسوا أبدًا، طالما أن الجاني لا يزال حرًّا طليقًا، والجاني هنا ليس شخصًا واحدًا بل عشرات الأشخاص!"

عدنا من الرحلة، وقد أدركتُ أني لم أعد أحتاج إلى ياسمين، بل أحتاج إلى عقلي، أفتح أبوابه وأتذكر ما نسيته، أفتح الملفات القديمة، كيف نترك الجناة يجولون بيننا ويدهم لا تزال ملطخة بالدماء؟ عارٌ علينا أن ننسى قتلانا وشهداءنا!

وصلنا للربوع الخضراء، كنا نمشي ونحن نمسك بأيدي بعضنا البعض برفق وهوادة دون أن نتكلم، فقد كنا نعلم أنا وهي أنها المرة الأخيرة التي سنلتقي فيها، ياسمين مهمتها انتهت، كنتُ أظن أنني أنا الذي ظهرتُ بعد موتها كي أكون سببًا في سلوانها، أدرك الآن أنها هي التي ظهرتْ في حياتي، كنت أحتاجها بشدة كي تنتشلني من حالة اليأس المظلم الذي كنتُ أمر به، كنت أنا الذي أحتاج إليك يا ياسمين، لقد ظهرتِ من أجلي ولم أظهر أنا من أجلك. ما هي إلا طفلة صغيرة وما أنا إلا طفل كبير. غربت الشمس وما أحلاه من غروب! كنت أحملها على كتفي وهي تشير إلى الشمس المحتضرة بإصبعها الرقيق.

رحمكِ الله يا ياسمين ورحم كل طفل مات بسبب صمتنا، ونسألك اللهم أن تعيننا على تزكية أنفسنا، وأولى هذه التزكية ألا نرضخ للظلم، ألا نترك الجناة، أن نتمرد على أنفسنا أولاً ثم نتمرد على سجاني الأوراح.

كنتُ أمشي بلا وجهة، وجدتُ نفسي عند تمثال عمر مكرم، أنظر إليه، تخيلتُ أنه بيديه المرفوعتين لا يشير إلى شيء بل يحوي المكان ويحتضن الميدان، كأنه يقول لي: "موعدك هنا"، جلستُ أمامه وحدثته بصوت عالٍ، نزل من مكانه وجلس بجانبي واستمع إلى بإنصات، كنت أبكي صامتا، بكاء ليس له صوت، ولا دموع، قد اكتفيتُ من الدموع، الآن بكائي هو بكاء عقل وقلب، شعرتُ بهزة أرضية خفيفة.

ضحكتُ رغمًا عني، نظرتُ (للسيد) التمثال عمر مكرم بجانبي وقلت له:

"يوم أمس فتحت التلفاز على إحدى القنوات الإخبارية لأجد إعصارًا ما يجتاح شرق الكاريبي، وحرائق في بعض الغابات في أمريكا، فيضانات في السودان، ومثلها في آسيا

وبراكين هنا

وحروب هناك

ثورات وثروات

ونهب

وقتل

وذبح

ماذا حدث للأرض؟

لقد شاخت الأرض وشاب شعرها، ومن فعل ذلك؟ إنه الظلم.

إن الأرض تعترض وتبكي وتحتضر، سلمها الله لنا زهراء يافعة، كانت الجزيرة العربية خضراء مليئة بالأنهار مع تقدم الزمن وقتل الإنسان لأخيه الإنسان تغيرت المعالم. ومع ظهور الصيحة الجديدة في قتل الأطفال تزلزلت الأرض وتغيرت، ظهر التصحر، درجة حرارة الأرض تزداد، الثلوج تنهار في القارتين القطبيتين فتغمر الأرض بالفياضانات والأعاصير، طبقة الأوزون الحامية للأرض من الأشعة الضارة تنهار يومًابعد يوم، مساحة اليابسة تقل، تتآكل أطراف الأرض، تنقرض الكائنات الجميلة والطيور، تظهر المسوخ بفعل الهندسة الوراثية، تغير طعم الفاكهة الجميل كما حدثني آبائي وأجدادي، قلّت خصوبة الأرض!"

تركته ونظرتُ للكرة الأرضية التي جاءت هي الأخرى وجلستُ أمامنا قائلاً:

"وأقول لك أيتها الأرض التي سكناك كل هذه المدة، لقد وفيتِ وأديتِ، ماذا نفعل نحن؟ نلقي عليك القنابل الذرية في اليابان، وفي دقائق مات مائتا ألف من البشر، شاهدت صورًا قديمة للقتلى، بشر ملقى في الشوارع كأنهم علب أطعمة، وفي الحرب العالمية الثانية قتلنا بعضنا البعض، ستون مليونا من البشر معظمهم أطفال قتلوا بلا ذنب، قتل موسوليني في ليبيا مائةألف إنسان، وفي الحبشة نصف مليون، وفي يوغوسلافيا ستمائة ألف!"

"ياسمين، تعالي أنتِ أيضًا واجلسي معنا، ولكن أين أنتِ الان؟ لقد جئتِ لتوقظي ضميري الغائب وذهبتِ، يا ألله، سأجعل من يوم الثالث من فبراير يوم حداد على ضمير الوطن، يوم الفاجعة، قُتل ركاب العبارة وحُرقوا وأُكلوا وأغرقوا، تآمرنا كلنا عليهم، ولم نرحم من نجا منهم، أو حتى أهليهم!"

وقفتُ في منتصف الميدان وصرخت بأعلى صوتي: "لن تموت، يا ضميري الحي!"

تركتُ السيد الجالس والأرض بجانبه، وذهبتُ عند عمود الإنارة وعبارة "موعدنا هنا"

ها أنا أقص عليكم حكايتي وحكاية ياسمين وعبير وهديل ومحمد وإيفيلين، وقد نسيتُ أن أخبركم باسمي...

أنا اسمي: ضمير العالم

الشفرة

(الآن)

اليوم العاشر، مازلت أمكث في مكاني، أحاول الانتهاء من كتابة مذكراتي أو روايتي، ياسمين تستحوذ على معظم صفحاتها، لم أعد أعرف إن كانت ياسمين هي حقيقة قد حدثت لي أم هي من محض خيالي؟

قاربتُ على الانتهاء من الفصل الأخير، صوت القنابل يمنعني، هدير الرصاصات التي تنطلق من فوق رأسي، رائحة الدماء الطازجة تلهب أنفي، الدخان في كل مكان، لا يزال مبنى الحزب الحاكم تتصاعد منه روائح الدخان، منظره المتفحم واللون الأسود على جدرانه ألهب أوراقي، ما زالت صورة (أحمد غريب) في مخيلتي، والمدرعة تدهس رأسه بلا رحمة، بعدما استوقفها أحمد في شجاعة وسأل قائدها لماذا يمدون الشرطة بالسلاح فتضرب به المتظاهرين؟ فما كان من قائدها إلا أن دهسه بلا رحمة!

تذكرت ذلك اليوم قبل نهاية شهر يناير بخمسة أيام عندما ذهبت إلى شارع (قصر العيني) أبحث عن نادي القصة ذلك الذي أخبروني عنه أنه يوجد في عمارة قديمة جدًّا، وصلتُ إلى المكان ودخلتُ إلى تلك البناية المهيبة، صعدتُ إلى الدور الثاني حيث يوجد النادي، طرقتُ الباب إلى أن جاء الرد متأخرًا وفتح أحدهم لي الباب، دلفتُ إلى الداخل، شعرتُ أني عدت بالزمن عشرات السنين، الأثاث القديم، الراديو الأسطوري، كل شيء على حاله، لا يوجد تلفاز أو حاسوب أو أي شيء يوحي بأننا في الألفية الثالثة، أخذني أحدهم إلى مكتب قديم يجلس عليه رجل عجوز طاعن في السن، يكاد يسمعني بصعوبة فاضطررتُ إلى أن أرفع صوتي وكنتُ كارهًا أن أفعل فجلال المكان يطغى على، أكاد أضع رأسي بين ضلوعي حتى لا أجرح الزمن بقدومي المفاجئ.

سألني بصوت مبحوح: "هل تريد التقدم لمسابقة النادي؟"

- "لا"
- في أي مجال؟"

من الواضح أنه لم يسمعني؛ فرفعت صوتي قائلاً: "لقد جئتُ كي أعد تقريرًا عن النادي ونشأته. "

أخذ يعبث في بعض الأوراق ثم قال لي: "هل ترى تلك الصورة هناك؟"

نظرتُ حيث أخبرني لأجد صورة باللونين الأبيض والأسود.

أكمل قائلاً: "إنها صورة للأديب طه حسين، هل تعلم أن طه حسين هو الذي أنشأ هذا النادي؟ كنتُ أقرأ له الجريدة كل يوم."

نظرتُ إليه وقد زادني كلامه شعورًا بتلك المهابة التي تملأ قلبي، يااااه، عشرات السنين مضت على تلك الذكريات، أخذ يذكرني بالماضي الجميل الذي لم أعشه بل قرأتُ عنه، أخذني من شرودي بصوته الرتيب: "وقد تعاقب بعده رؤساء النادي من: إحسان عبد القدوس ثم يوسف السباعي.... كم كان رجلاً طيبًا!"

- "منذ متى وأنت هنا؟

أجابني وهو ينظر لسقف الغرفة: "أجلس على هذا المكتب منذ خمسين سنة."

- "كل هذه السنوات ولا تزال تجلس على المكتب نفسه منذ خمسين سنة؟!"

أنهيتُ الحوار معه ودوَّنتُ كل كلامه، ثم غادرتُ المكان وأنا أشعر أني أنتقل من زمان إلى آخر، جلستُ على المقهى أسفل البناية أنظر إلى الناس يمشون في كل اتجاه، الشارع نفسه منذ مئات السنين والناس تتبدل والأرواح تتغير، ومازال الشارع قائمًا والبناية العتيقة قائمة، كانت هذه هي أول مرة لي أزور فيها النادى، يالله... نسيتُ أن أسأل العجوز عن اسمه، ولكني سأسميه عم (جلال)، كالذى شعرت به فى داخلى من أثر لقائه، كم عشتَ من السنين يا عم جلال شاهدًا على الزمن وتقلباته! كان يقرأ الجريدة لطه حسين، وعمل مع إحسان عبد القدوس، وصادَق يوسف السباعي... رحمهم الله!

بارك الله في عمركَ يا عم جلال، أنظر إلى الشارع من حولي وأكاد أبكي، من هم مثلكَ يا عم جلال في بلاد أخرى لن يُتركوا! بل سيخلدوا لينهل من خبرتهم الأحفاد والأبناء، ولكننا نسيناكَ... ومن نحن؟ نحن الضائعون في مجرى الزمن، احتسيتُ كوبا من الشاي وأغلقتُ دفتر أفكاري وغادرت المقهى، مشيتُ قليلاً ثم نظرت ورائي لأجد المبنى العتيق، أشرتُ له بيدي تحية احترام، وغادرتُ ذلك الزمان كي أذهب إلى زمني البائس.

أخذتُ أمشي بلا وِجهة، تأخذني قدماي من شارع لآخر، تأخذني الذكريات والأحلام، أتخيل بلدي والحرائق تملأها، ولكنها ليست نيرانًا حقيقية بل نيران جهل وحقد وحسد وأنانية وظلم، الكل يتصارع، الكل يتقاتل وقد نسوا أمرها!

آه...كم أفتقد تلك الصغيرة! مر شهر كامل على لقائنا الأخير، كنا نعلم أننا لن نرى بعضنا البعض مرة أخرى، ولكني أفتقدكِ جدًّا صغيرتي، أريد أن أنكث بوعدي لكِ وأذهب إلى بيتكِ، ولكن علمي بأني لا أحتاج لرحلاتك بعد الآن يحُول بيني وبين نكث الوعد.

وصلتُ لإحدى البنايات المتهدمة التي تبعد عن مقر عملي في الجريدة مئات الأمتار، كان مبنى عتيقًا بناه المهندسون الأوربيون بأمر من الملك فؤاد، كان غايةً في الروعة كمثله من أبنية وسط البلد التى هى صورة طبق الأصل عن مثيلاتها فى أوروبا، كان الملك يأتي بالمهندس

الذي قام بإنشاء مبنى ما هناك ليصنع مثيلا له فى القاهرة. منذ شهور هدمو المبنى العتيق بأمر من عضو في البرلمان ينتمي لحزب النظام، استصدر قرارًا بهدمه كي يبني برجًا عظيمًا مكانه، عندما رأيتهم ذلك اليوم وهم يهدمونه، تهدَّم شيء في داخلي، أخافُ عليكَ يا عم جلال أن يهدموك أنت الآخر مثل كل شيء في بلدي.

أخذتُ أنظر إلى المبنى المتهدم ثم رأيتُها هناك تختفي خلف ذلك السور، من هي؟؟ لن أقول، سأخفيها في نفسي ولكني أعلم أنها تتوارى عن الأنظار خلف سور متهدم، وتبكي بعينيها الرقيقتين، من أنتِ؟ أراكِ من بعيد، أقترب منكِ، أمد إليكِ يدي عساها تصل إليكِ ولكنها لا تفعل، كأنك قريبة وبعيدة، أراكِ تبتسمين وأراكِ تبتئسين. لماذا تبكين يا حبيبتي؟ تشبهين ياسمينًا في طيبتها ورقتها، لماذا أرى وجهك الجميل بهذا الحزن وبهذه الطيبة؟ أبكي معكِ بلا دموع؛ فقد جفت دموعي، أو أني لم يعد لديَّ قلب أنا الآخر، أراهم يتقاتلون ولا يعرونك أي اهتمام، أرى هناك وجوهًا من بعيد متناثرة تراكِ هي الأخرى، حزينة مثلي على حزنك، باكية على بكائكِ، تمد يديها بلا أذرع، يعتريني الخوف، فكلما حاولتُ الاقتراب منهم لا أجدهم وكأنهم سراب، ولكني أعلم أنهم هناك ينظرون إليكِ مثلي يا عروس الأسوار الحزينة، يا موطني، يا عشقي الأول والأخير.

تخيلته هناك وهو ينظر وراءه لبلده (مكة) ويقول والحب يملأ شغاف قلبه: "لولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ، فأنت أحب البلاد إلى قلبي."كم كنتَ جميلا يا رسول الله! كم كانت مشاعرك فياضة لم تحتوِ البشر فقط كفارهم ومسلميهم، بل كانت تحتوي الجماد والبلاد! كم أشتاق إليكَ، أرى نفسي أقول لبلدى: "لولا أن أهلك قتلوا الحب فيك لما بكيتُ".

يالله! أراهم هناك على الأرائك يتقاتلون ولهوى النفس يتمايلون، وبعجب الحال يتقافزون، خاوية قلوبهم إلا من الطمع، الكل قد نسوكِ يا بلادي، الكل قد نسونا نحن، ومن نحن؟ نحن الطامحون، وهل يعيب الطموح أهله أم أن العيب في الطامعين؟ هم لا يرونكِ أبدًا، ولا يرونا.

حلمنا يومًا ببلد جميل، خضراء الزروع، بيضاء المياه والسماء والقلوب، الحب في كل مكان، وهناك يد تبني، ويد تزرع، ويد تقطف، ويد تصنع، ويد تأكل، ويد تحمل، ويد ترسم، ترسم أحلامًا كأجمل ما تكون، أراهم هناك نفس الوجوه الطامحة التي تمد يدها لعروس الأسوار الحزينة هي نفسها التي أراها في حلمي اليقظ الآن، تبتسم لبعضها البعض وكل منها يمسك بيد جاره وأنا معهم أبتسم وأمسك بيد أحدهم وفي يدي الأخري معولي، نلقي النكات سويًّا ونحن نمشي على تلك الأرض الصفراء لنصل لذلك المكان، الذي حدده الله عز وجل، لنبدأ البناء، أخذت أضرب الأرض بمعولي، فتفجر ماء يسير من تحت معولي، يالله! كم فرحتُ وأخذتُ أرقص فرحًا وأنا أرى الماء يتدفق من حولي والكل يضحك ويجري ناحيتي يحيطونني ويرفعونني رفعًا ويحملوني على أعناقهم كأنني بطل من الأبطال.

أفقتُ من حلمي لأجد نفسي مرة أخرى أمام عروس الأسوار الحزينة، العروس التي فقدت عريسها يوم عرسهما بعد أن تحررت أخيرًا من قيود العبودية والاحتلال؛ ولكنهم لم يمهلوها لتفرح ولم يمهلوا محبيها ليبتهجوا، وقف المحبون يمدون أيديهم إلى الأسوار لعل العروس تقوم من مضجعها وتصحبهم ليزفوها من جديد. ولكن.. مهلا فقد أدركتُ أن العروس لن تقوم الآن فحوْل معصميها قيدان، وحول رسغيها قيدان، مكتوب على أولهم:(قيد الطمع) والثاني:(قيد الكره) والثالث:(قيد الفُرقة) والرابع (قيد الأنانية)، علمتُ الآن لمَ هي حزينة... لأن مفاتيح قيودها ليست بأيدي محبيها!

أكملتُ سيري واتجهتُ إلى مقر الجريدة، دخلتُ إلى مكتبي وأخذتُ أعد مقالة ملتهبة عن نادي القصة والزمن القديم، وكيف يجب أن نحافظ عليه ونحميه من التشويه والعبث، وفجأة...اخترق أذنيَّ هدير الحناجر... الصوت يعلو في كل مكان، يسقط النظام، يسقط الظلم، لقد حُلت شفرات العقول، حُلت شفرة الخوف، لم يعد الخوف يسيطر على القلوب، تعالت الحناجر بالهتافات، من كل عرق وجنس ودين، الكل في واحد وواحد بالكل، الشرطة مستعدة، جحافل الجنود تنتظر الإشارة، ولكنهم لا يعلمون أن الشفرة قد حُلت لغزها ولم يعد من الممكن الرجوع، أغلقت جهاز الحاسوب الخاص بي، هرعتُ إلى الشارع ألتحمُ بالمتظاهرين، وصلنا للميدان، تمثال عمر مكرم يبدو صغيرًا من بعيد، لم ينزل من منصته من جديد لتعود فيه الحياة، أمواج البشر المختلطة منعته من ذلك، طلبت منه أن يظل في مكانه، اليوم لا مكان للخيال، الواقع يمكث هنا في هذا المكان، في هذه الأرواح المتكاتفة، صوت الحق يعلو يطالب بسقوط الظلم، اليوم الثاني يمر علينا هنا، قد نسيتُ اسمي ونسيتُ عملي ونسيتُ من أنا، استيقظتُ من ثباتي، لم يعد اسمي هو (ضمير الوطن)، اسمي هو أحمد بسيوني وأحمد غريب ومصطفى الصاوي، قابلتُ هذا الأخير في اليوم الرابع على الكوبري الذي شهد على كل رحلاتي السابقة وأنا عائد منها، آلاف الشباب يحاولون دخول الميدان، فموعدهم هناك، المجنزرات والعربات المدرعة تحُول بينهم وبين الميدان، خراطيم المياه ترشقنا بدفعات المياه المتلاحقة، أُذِّنَ لصلاة العصر، اصطففنا بجوار بعضنا البعض لأداء الصلاة، لم يرحموا قدسية ما نفعله، أمطرونا بالماء الذي يوجَّه نحو صدورنا كالرصاص، أمواج متدافعة، شيء ما يدفع بنا هناك، إلى ميدان التحرير، كي تتحرر أرواحنا من هموم السنين، من ثقل الظلم، القنابل تنهمر فوق رءوسنا كحبات المطر، الدخان الأبيض الكثيف يغلف المكان، دموعي تتساقط رغما عني فالغاز قد فعل فعلته، أحدهم أعطاني قناعًا من القماش، وقطعة قماش أخرى مبللة بالخل لأضعها على عيني، رأيتُ (مصطفى) يجري هناك يحاول أن يبحث عن أخيه الذي أُصيب في يده، الصراع يحتدم، تعالت الهتافات، لا شيء يعلو على صوت الميدان، تأتي رصاصة الغدر لتصيب مصطفى في عنقه، أهرع إليه لتفيض روحه إلى الخالق وابتسامة جميلة تعلو وجهه، لقد أدى ما عليه، تصيب رأسي هراوة جندي الأمن وتشج رأسي شجًّا، الدماء تتساقط من رأسي وتختلط بالمياه المندفعة نحونا، يتراجع الجنود أمام الأرواح المتحررة، ثمن المعرفة غالٍ كما أخبرتني ياسمين.

دخلتُ إلى الميدان، أشم رائحة غريبة كأنها نسائم الحرية، أخيرًا تحررتْ روحي وتخلصت من الخوف، أصبحتُ أطير بلا جناحين أحلق فوق الميدان، أرى هدير الثوار، عربة ما تدهس رأس أحدهم هناك، وأب يبحث عن جثة ابنه الرضيع وزوجته بعدما اخترقت الرصاصة

جمجمة الأم لتدخل إلى رأس الرضيع، يسقطان أرضًا، يختفي ابنه الآخر يبحث عنه، عندما يعود كي يحمل جثة زوجته ورضيعه لا يجدهما، يبحث عنهما كالمجنون... امرأة حامل تصيبها قنبلة الغاز، تفقد وعيها، يحملها الأبطال.

أرى (ياسمينًا) في كل مكان، تظهر هنا وهي تهتف بضراوة، تأتي من هناك وهي محمولة على الأعناق، تجري وتقفز على رجال الأمن المحصنين، أراها في كل مكان، كل الوجوه هنا هي وجهها، نفس العينين البريئتين اللتين تبحثان عن الخلاص، رائحة الدم والعرق اختلطت بالتراب، سقطتْ أرضًا والدماء تسيل مني مرة أخرى، أرى وجه شهيد مبتسم يفارق الحياة ويترك لنا ابتسامته، يحملونني على أكتافهم ويسرعون بي للمستشفى الميداني في زاوية الصلاة الصغيرة، ضمدوا جراحي، الساعة الآن الخامسة، أرى جنود الجيش ينزلون إلى الميدان، الجميع فرح، نسمع الصيحات "الجيش أتى ليحمينا"، اختفت الشرطة، النيران تشتعل في مبنى النظام وحزبه، الليل يأتي ببرودته، سمعنا عن عشرين من الشهداء قد دهستهم سيارة الخسة والعار، في شارع قصر العيني سيارة بيضاء كبيرة تُجهز عليهم من الخلف، الشهداء يتزايدون، المشفى يمتلئ عن آخره، صوت الأنين والآهات، عرفتُ اليوم أن زميلي في الجريدة قد استشهد، كان يطل برأسه من نافذة الجريدة يتابع المسيرة الحاشدة ويصور اعتداء الأمن على الناس فاغتاله قناص، أطلقوا النار على رأسه، مثله مثل الكثيرين الذين كانوا يوثقون كل شيء.

رأيتُ اليوم مقتل (أحمد بسيوني)، كان يصور الأحداث ويوثق الاعتداءات، كان الثوار فرحين به، يطالبونه بتصوير كل شيء، اغتاله قناص اخر ثم داست عليه مدرعة للشرطة، كانت هناك محاولة لسرقة المتحف تصدى لها الثوار، سمعنا عن اختفاء الأمن من كل البلاد، أُحرِقت أقسام الشرطة، يخرج البلطجية من مخابئهم، الناس تتكاتف من أجلنا، اللجان الشعبية تنتشر على مخارج ومداخل الميدان، السجون تُفتح على مصاريعها، الكلاب المختفية في الكهوف أطلقوا سراحها، النهب يتنشر، الضغوط تزداد، الأوراح تُحصَد، ولكن الحلم أكبر من كل هذا، صوت الظلم لن يعلو مرة أخرى، كنا ندفئ بعضنا البعض، البرودة تعصف بنا في الخلاء، كنا نبعث بالدفء في أجسامنا ونجلس في حلقات حول النار نتسامر، على كلمات الشيخ إمام أشعلنا روح الثورة في عقولنا، انتظرنا الموت كي يأتي في أي لحظة كي يأخذ أحدنا، ولكن ذلك لم يثنِنا.

كان ميدانًا للشجعان الذين يبتسمون ويصيحون وينشدون ويهللون ويكبرون، والقنابل تتقافز من حولهم قفزًا والهراوات تأخذهم يمنة ويسرى، ليلاً يتدفأون بأنس الكلام وصخب الأحلام، والكل يبني في خياله ويرسم، أراهم يحلمون والبرد يحيط بهم من كل مكان وكذلك الغدر يفعل، والنار التي أشعلوها تكاد تنطفئ ولكن البرد لا يقترب منهم فقد أدفأتهم روح المحبة التي أحاطت بهم بعدما خرجت من قلوبهم لتصنع حولهم هالة من نور لا يقترب منها شيء. كنا نقتات على الفتات، ننتظر اليوم الذي ستحل فيه شفرة عقول الملايين ليمتلئ الميدان بهم، فإن الشعب إذا حل شفرة عقله يومًا ما فلن تنعقد بعدها أبدًا.

أرى ياسمينًا حول النار ولكني لا أكلمها، هي تنظر إليَّ فقط ولا تكلمني، ولكنها من الحين للآخر تلقي عليَّ ابتسامة تشفي قلبي، بدأت قوافل البلطجة تأتي إلينا، يقولون إنهم من مؤيدي النظام، يأتون بقنابل الملوتوف ويمطروننا بها، ولكن الحلم لن يُحرَق بسهولة حتى ولو أتوا بكل مولوتوف العالم، في عصر اليوم التالي وجدنا قوافل الجمال والبغال والخيول تهاجمنا بسياطهم وعصيهم، وجدت أمًّا تحمل طفلها بعد أن يُضرب على رأسه بالسوط فتنفجر منه الدماء، تهرول والرعب يمتلكها، بعضنا يتمكن منهم بعد محاولات الكر والفر، الغدر يبعث بكل جيوشه، ولكن جيوش الحق لا تُهزم، في الليل هاجمونا بنارهم ونيرانهم، حاولوا اقتحام الميدان من عند تمثال الشهيد عبدالمنعم رياض ومن فوق كوبري أكتوبر، كنتُ مع الذين حاولوا صد الهجوم...

حتى رأيتهم يختطفونه من بيننا، ذلك الشاب الأسد الذي دافع عن الميدان بصدره كألف شخص، جاءوا واختطفوه من بيننا على حين غرة، ثم أعادوه بعد قليل، الرأس في مكان والجسد في مكان آخر، غدر الخيانة فصل رأسه عن جسده، ذهبتُ لذلك الرأس كي أحمله بيدي فعرفته، أنت هو أيها الشاب البطل، يا من ضحك على قولكَ الجميع، اليوم قد أبهرتَ العالم وضحكتَ على الجميع، لقد كنتَ على صواب، أنت غيرتَ العالم بالفعل، تلك اللهجة الحاسمة التي كانت في كلامكَ، أخذتُ أحسب الأيام والشهور، لقد مرت ستة أشهر بالفعل، تحققت نبوءتكَ أيها البطل، أنت ورفاقك تحديتم الجميع، حللتم شفرة عقولكم سريعًا، لم تحتاجوا لأشباح ولا خوارق للطبيعة كي تحلوا الشفرة، آمنتَ أن التغيير يأتي من هنا، من الثورة على الظلم والطغيان، قدمتَ روحك فداءً لبلدك، وضعتَ رأسك على المذبح مثلما فعلت ياسمين كي تنقذ العالم، أعظم الرسائل أن تكون روحك وجسدك المذبوح هي الحمام الزاجل الذي يحمل في أرجله الرسائل، أرى المسيح عيسى يأخذوه للصلب، يصلبوه أو يرفعه الله، ليس هذا هو أهمَّه، المهم أن تصل الرسالة، أن يكون الموت من أجل خلاص الناس، أوذي النبي محمد من أجل رسالته، شُق رأس زكريا عليه السلام من أجل ذلك، أتى الرسل كي يرفعوا عنا الظلم، وكانت أجسادهم ودماؤهم وهم أشرف الخلق تهون أمام إقامة العدل في الأرض.

أين أنت يا (نبيل) في خضم تلك الأحداث؟ هل عدتَ مثل سابق عهدك ذلك الثوري؟ هل تذكرتَ أنه الميدان نفسه الذي جمعنا في ثورة الخبز أيام كنا شبابًا في عمر الزهور نطالب بالعدالة الاجتماعية ومات منا سبعون؟ أم أنك قد تحولتَ وأصبحتَ مثلهم تمامًا تؤيد نظام البُغض والكره؟ كم أتمنى أن أراكَ هنا كي يكتمل حلمي وحلمك بالمدينة الفاضلة، بل ببلدنا الفاضل، ثم آتي بك إلى هنا وأريكَ رأس الشهيد الذي أحمله، وأخبرك أنه قد نجح يا نبيل وأني قد فزت بالرهان، لقد غيَّر العالم هو ورفاقه في ستة أشهر، لم يعد العالم كما هو، تغيرت موازين القوى، أصبح العالم يدرك أن هناك شيئًا اسمه الشعب، رحمك الله أيها الشاب، حملتُ جثته على كتفي بعد أن كفنته في أحد الأغطية وذهبتُ به لمنتصف الميدان وسلمته للمستشفى الميداني الذي أقيم في الجزيرة الوسطى.

قمتُ من مكاني وذهبت باتجاه المتحف، لأرى الثوار قد تقهقروا أمام جحافل الغدر، الموت يقترب من الميدان، الكل في الداخل.... نساءً وأطفالاً وأطباءً ومسعفين... كلهم معرضون للموت، يجب أن ندافع عن حلمنا مهما كان الثمن، جريتُ وأنا أصرخ، سنوات عمري

الخمسون لم تعترض طريقي، أسمع طلقات الرصاص في كل مكان، رائحة الدماء طغت على رائحة البارود، رأيته يزحف على جسدي ويمشي كيف يشاء لا أستطيع أن أوقفه، اليوم هو الخميس الثالث من فبراير، كنتُ قد تركتُ أوراق روايتي عند تمثال عبد المنعم رياض، كنت أعرف أن أحدًا ما سيقرؤها ويخبر بها العالم كله، صورة تمثالي إبراهيم باشا والفريق عبد المنعم رياض في مخيلتي يشيران بأيديهما، تمثال عمر مكرم يحتويني في هذا الميدان، ما زال يمشي على جسدي.

ياسمين.... كم كنتِ حكيمة كان يجب أن أعلم أن تحذيركِ لي من السهم الأحمر لم يكن خاصًّا برحلاتنا، بل كنتِ تحذرينني من هذا اليوم وقد أخبرتني أن لديَّ الاختيار، لا يزال شعاع الليزر الأحمر أو السهم الأحمر كما أسمته يدور حول مقر قلبي ويحذرني كما حذرتني ياسمين، هل أكمل وأموت أم أتراجع؟ لحظة فارقة! و هل تراجع موسى عليه السلام أم شقَّ البحر بلا خوف؟ وهل تراجع المسيح عند الصليب؟ هل تراجع رسول الله في موقعة أحد والحديد يخترق وجهه الكريم ودماؤه الطاهرة تغرق وجهه؟

لقد أخبرتني يا ياسمين أني يجب أن أختار. وأنا أختار أن أقدِّم جسدي قربانًا للحلم، لعل الميدان يعيش بعدها وترفرف أرواحنا لتصنع هالة من نور مانعة للغدر أن يخترقه.

علمتني ياسمين أن في بعض الأحيان يكون في الموت حياة، أكملتُ طريقي، لا أعلم ما حدث بعدها، وأنا أرى الأرض عند أطراف عيني، فتحت عيني بصعوبة لأرى عمود الإنارة بجانبي وياسمين تلتف حوله كأنه أرجوحة وتبتسم لي وأنا أقرأ ما هو مكتوب عليه...."موعنا هنا"!

انتهى

- قصة عبير هي قصة حقيقة حدثت بتاريخ مارس 2006.

صدر حكم من داخل المحكمة الأمريكية بالسجن لمدة 110 أعوام على ستيفن، والسجن مدى الحياة للمتهمين الثلاثة الآخرين، والسجن خمس سنوات على الخامس الذي كان يراقب الاتصالات بالخارج، مع وجود شرط الإفراج عنهم جميعًا بما فيهم ستيفن إذا أحسنوا السير والسلوك داخل السجن!!!

- قصة إيفيلين هي قصة حقيقة.
- نادي القصة موجود إلى الآن في شارع قصر العيني، سكرتير النادي كان يعمل في مكتبه منذ خمسين عامًا حتى قيام ثورة 2011 ولم تصلني أخبارا عنه بعدها.
- للتواصل مع الكاتب: truenaga@yahoo.com

More Books!

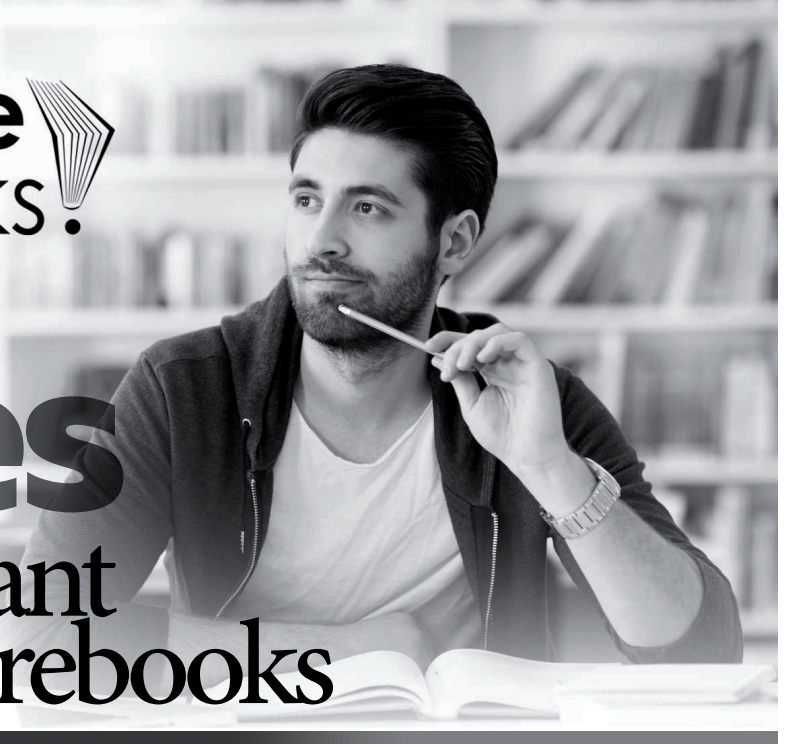

Yes
I want
morebooks

اشتري كتبك سريعا و مباشرة من الأنترنيت, على أسرع متاجر الكتب الالكترونية في العالم
بفضل تقنية الطباعة عند الطلب, فكتبنا صديقة للبيئة

اشتري كتبك على الأنترنيت

www.get-morebooks.com

Kaufen Sie Ihre Bücher schnell und unkompliziert online – auf einer der am schnellsten wachsenden Buchhandelsplattformen weltweit!
Dank Print-On-Demand umwelt- und ressourcenschonend produziert.

Bücher schneller online kaufen
www.morebooks.de

OmniScriptum Marketing DEU GmbH
Bahnhofstr. 28
D - 66111 Saarbrücken
Telefax: +49 681 93 81 567-9

info@omniscriptum.com
www.omniscriptum.com

OMNIScriptum